الباب الرابع

فى وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية وما يتعلق بذلك

كان الشيخ رضى الله عنه إماماً فى سائر العلوم محققاً للمنطوق منها والمفهوم حافظا متقنا . واسع الاطلاع . مديد الباع . قوى الحجة والمعارضة فصيحاً فطنا ذكياً غاية فى الاستحضار ، بل آية وأعجوبة من عجائب الدهر فيه ما رأيت من علماء عصره بالمغرب والحجاز ، ومصر والشام من يدانيه فى ذلك ، إلا شيخنا الامام سيدى محمد بن جعفر الكتانى فى التراجم فى تراجم الأولياء ومناقبهم خاصة . وشيخنا الامام أبا عبد الله محمد بخيت فى مسائل الفقه والمعقول خاصة .

وأما الشيخ رضى الله عنه فكان شأنه فى الاستحضار عجبا يبهر العقول بحيث كانت مجالسه العادية على الدوام كأنها دروس كبار العلماء الحفاظ ، الذين يتعبون فى جمع ما يلقون فيها فى الساعات المتعددة . بل ما رأيت درساً جامعاً لغرائب العلوم ونوادر الأخبار ونفائس الفوائد كمجالسه الدائمة مع ضيوفه وزواره وأصحابه حضراً وسفراً فى داره ودار غيره اذا دعى لها أوخرج لبستان فى فسحة ونزهة ، فان مجالسه مع طولها لم يكن يذكر فيها الدنيا وأخبارها ، ولا يتعرض لزيد ولا عمرو . بل كانت مذاكرة علمية والحاضرون كلهم سكوت كأنما على رؤوسهم الطير يستمعون إلا إذا سأل سائل عن مسألة أو استفهم عنها . وما كان يتعرض لذلك إلا القليل من جلاسه الذين لهم جرأة على الكلام معه . وكانت مجالسه تطول على هذه الحالة الساعات الطويلة وربما استمر مجلسه من بعد العصر إلى ما بعد العشاء بساعة وساعتين لا يقوم فيها إلا للصلاة ثم يعود للمذاكرة وربما جلس من بعد الفطور إلى صلاة الظهر ، لا سيما مع الضيوف من أهل فاس وسلا وأضرابهم الراغبين فى سماع

العلوم والمعارف . وكان المرء يسمع منه فى المجلس الواحد من غرائب العلوم ونوادر الأخبار والنقول مالا يهتدى اليه بعد البحث الطويل . والاطلاع الشديد إلا فى الأزمنة المتطاولة .

وقد وصف مجلسه بعض أهل العلم ، فقال :

ومن أكبر شيوخنا وأفضلهم . العارف الأكبر ، والكبريت الأحمر . مرشد السالكين ومربى المريدين . الدال على الله بالأقوال والافعال . الناهج بأحواله منهج الكمال . مأوى الضعفاء ومعينهم ، ومرشد الاقوياء ومقويهم منبع المعارف والاسرار ، وملجأ الذاكرين آناء الليل وأطراف النهار . من اذا تكلم كفى . واذا صاحب صفا . واذا عاهد وفى . واذاقدر عفا .

الشبيه فى أخلاقه بجده المصطفى صلى الله عليه وسلم . بحر المعارف والعلوم ومبدى الضياء من الظلام فى الفهوم . الجامع بين المعقول والمنقول . الفانى فى محبة الرسول الشريف المنيف شيخنا حساً ومعنى وحبيبنا روحاً وجسماسيدى الحاج محمدابن العارف الكامل سيدى الحاج الصديق ابن القطب المربى سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن سمعنا عليه رضى الله عنه وقدس روحه علوماً جمة مذاكرة منه لنا فى جميع الفنون العلمية وأكثرها فى التصوف وحكاية الصالحين وعجائبهم فى سلوكهم الى الله تعالى وافتراق أحوالهم فى مواجيدهم وأذواقهم ، بحيث لو كنا نكتب ما نسمع منه فى جميع العلوم من المسائل مع تحقيقها والقول الفصل فيها ومايتبع ذلك لجمعنا منه مجلدات ، ولكن حالنا حال الكسالى . وآفة العلم عدم التقييد ، فندمنا حيث لاينفعنا الندم اهـ .

ووصف مجلسه صاحب نبذة التحقيق ولم يكن ممن يجالسه إلا قليلا على انفراد ، فقال :

وكانت مجالسه قدس سره لا تخلو من الفوائد . ولا بد لمجالسه أن ينال من فيضه أبدع الصلات وأنفع العوائد إلى أن قال .

وبالجملة فتبحره فى العلوم ظاهراً وباطناً مما علمه الخاص والعام وفضله وكماله مما أقر به القاصى والدانى . وقد كانت ترد عليه المسائل حتى من الخارج فى مذاهب أخرى فيجيب عنها .

وكتب إلى الشريف الجليل العلامة الأديب الشاعر الأثرى سيدى محمد الناصر الكتانى يقول :

اتصلت بالشيخ طيب الله ثراه وأنا فتى يافع . اشرفت على العشرين ، ونزلت ضيفا عليه نحواً من شهرين . كنت أجالسه فى خلالها فى الصباح والمساء . وكان مجلسنا لا ينتهى حتى تمر عليه ثلاث ساعات كاملة ، وربما تجاوزتها أسائله فيتدفق فى الجواب بفصاحة بالغة وأسلوب عربى متين وعلم ينم عن مادة كبيرة يستقى منها أجوبته كنت أسائله فى الحديث والفقه والتصوف والتاريخ والادب والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة . فكان يبهرنى منه استيعابه بالجواب عن المسألة التى أسأله عنها فلايترك فى نفسى مكاناً فارغاً للتعقيب على السؤال اه .

والعلوم التى كانت له فيها اليد الطولى هى :

الفقه . والاصول . والكلام . والتصوف . والتفسير . والحديث . والنحو . والصرف . والمنطق . والتاريخ . والتراجم . والطب . والانساب والسياسة الشرعية . وسر الحرف . وخواص الأسماء مع المشاركة القوية فى سائر العلوم .

أما الفقه : فكان يستحضر جميع فروعه الخفية والجلية ، لا سيما الفقه المالكى فانه كان نصب عينه بعجره وبجره ، وقواعد القضاء ، والدعاوى ، والقوانين التى قننها المالكية فى هذا الباب ، واختص بها المغاربة من بينهم وتوسع فيها المتأخرون ، وسموها فقهاً مع أن تلك المسائل لا يحفظها ويبرع فيها إلا البزل من الفقهاء . الراغبين فى الدنيا ، المخالطين للقضاء والفتوى

والشهادة الممارسين لذلك فى الأعوام الكثيرة والأزمان الطويلة . والشيخ رضى الله عنه كان أبغض شيء اليه خطة القضاء والشهادة والفتوى والتعرض لنيل الدنيا بالعلم ، ومع هذا فكان من أبرع الناس وأحفظهم لهذه الفروع حتى كانت القضاة والحكام والمفتون يفزعون اليه فى الاستفادة منه عند نزول القضايا العويصة والدعاوى المشتبكة . فكان يحرر لهم النازلة ويكتب لهم الحكم والفتوى ويدفع ذلك لبعض تلامذته وأنجاله . فيكتبه بخطه وينسبه الى نفسه فرارا من أن ينسب اليه هو رضى الله عنه شيء من ذلك . وربما أخذ الواسطة فى ذلك أموالا طائلة بغير علمه . وقل أن يوجد كتاب فى مكتبته فى الفقه المالكى والقوانين العملية التى ألحقوها بالفقه . إلا وقد طالعها وصحح أغلاطها بخطه .

وأما الأصول فكان يستحضر جميع مسائله . والخلاف بين أئمته ويرد ويقبل ويرجح ويزيف منها بحسب نظره واجتهاده . حتى ان بعض من كان يدعى أنه لايوجد بالمغرب من يتقن علم الأصول كاتقانه لما قدم الى طنجة . وزاره ذاكره فى مسألة أصولية جر البحث ذكرها . فأراد الرجل أن يغرب ويراوغ بذكر بعض الاقوال ويؤيدها . فرده الشيخ الى الصواب وأبطل دلائله . ورجح الحق بما لم يسعه معه الى الرجوع والاعتراف فكان يقول بعد مفارقة الشيخ لم أر من يفهم الاصول غيره .

وزاره مرة أشهر علماء فاس بعلم الاصول . وهو الفقيه الفضيلى . فذاكره الشيخ فى مسألة فظهر عجزه وقصوره أمام الشيخ واعترف هو بذلك .

فقال له نحن فقهاء الدرس والكراس ، فما دمنا فى الدرس حررنا المسألة واذا قمنا منه تركناها ولم يبق معنا منها شيء .

وأما الكلام فكان اليه المنتهى فى تحقيق دلائله وبراهينه مع الاطلاع التام على جميع المذاهب والنحل والاقوال ، بل كان فى بدايته شغوفا بالمناظرة

فيه انتصارا لمذهب أهل السنة وإبانة للمعتقد الحق . ولما رحل الى الحج جرت له فيه مناظرات بالحجاز ومصر والشام مع علمائها . ولما رحلت إلى القاهرة رحلتي الأولى زارني بعض من كان يتردد الى الشيخ أيام مروره بالقاهرة في طريق رجوعه من الحج ، وقال لي إن والدك إمام ما رأينا مثله فانى ناظرته لما كان هنا وتحققت فضله وبراعته في علم الكلام واستفدت منه مع أن هذا الرجل من المشهورين بالجدال والمناظرات التعسفية في علم الكلام .

وأما التفسير : فكان آية فيه ، لا يسأل عن آية أو يجرى ذكرها في مذاكرة إلا ويبدىء فيها ويعيد ، ويذكر من معانيها مالا يستطيع ذكره إلا من كان محررا لها في تلك الساعة من جميع التفاسير . ولما فتح قراءة التفسير أملى في الكلام على الفاتحة إلى قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» مجالس طول شهر رمضان من بعد العصر الى قبيل المغرب بقليل . وحدثني الفقير الصوفي أحمد الحناط قال حضرت مع الشيخ مرة بتطوان في بعض المجالس الحافلة بالزوار فتكلم على قوله تعالى والذى قدر فهدى فأتى فيها بما بهر عقول الحاضرين من علماء وعوام وأدخل فيها مالم يخطر لأحد ببال

وأما الحديث فكان حافظا لمتونه مديم النظر فيه والاشتغال بفنونه وكتبه لاسيما فتح الباري فانه يستحضر جميع مسائله

وأما التصوف فهو علمه ومن صدره تتفجر منابعه وعيونه سواء تصوف الارشاد والعمل والسلوك وتصوف العلم بالله وأهل الفناء في وحدة الوجود الا أنه كان إلى القسم الأول أميل لأن عنايته كانت بالعمل والتخلق أكثر وكان لا يتكلم في الثاني إلا نادرا مع أهله لاسيما في بدايته وأوائل أمره فانه كان غيوراً على نشر الحقائق شديد التكتم لها كما كان أستاذه سيدى محمد بن ابراهيم رضي الله عنه .

وأما النحو والصرف فكان يتقنهما اتقان من لم يعرف غيرهما وكانت دروسه في الخلاصة بشرحي المكودي وابن هشام من أعجب الدروس

وأمتعها فى هذا الفن بل كان يحبه على الخصوص ويتعشقه ويحث على قراءته والتضلع منه كثيراً ويقول إنه مفتاح فهم العلوم لاسيما البلاغة والأصول

وأما المنطق فكان يتقنه غاية واقتنى كثيراً من كتبه ودرسه بتوسع واطلاع وتحقيق وبحث لم ير الطلبة مثله

وأما التاريخ والتراجم فشأنه فيها أعجب وأغرب من كل ماسبق فانه لايكاد يذكر دولة من ظهور الاسلام إلى عصره إلا ويحدثك عنها حديث من حضرها وكان واحداً من أعيانها ورجال دولتها لاسيما دول المغرب والأندلس وكذلك تراجم العلماء والشيوخ والأولياء ووقائعهم فى سلوكهم وتربيتهم وأخبارهم مع تلامذتهم وما إلى ذلك معضم الأشباه والنظائر فاذا اقتضى الحال فى موعظة أو مذاكرة الاستشهاد بواقعة وحكاية يضم إليها أمثالها مما وقع لشيوخ كثيرين من مشارقة ومغاربة فى عصور متقدمة ومتأخرة كأنه كان يبحث عن ذلك ويجمعه منذ أزمان طويلة فيقول مثلا وقع للجنيد أو الشبلى مع فلان كذا ومثله وقع للرفاعى أوالجيلانى مع فلان وكذلك للمتبولى مع مع الخواص وللبكرى مع ابنه وسيدى يوسف الفاسى مع أخيه أوصاحبه فلان وهكذا يسرد الأشباه والنظائر من الحكايات والوقائع التاريخية فى كل مناسبة حتى أن بعضهم يرد عليه يستشيره فى أمر فيشير عليه بما فيه رشده ويزوده فى ذلك بحكايات ووقائع للمتقدمين فى نفس المسألة

وأما السياسة الشرعية ومعرفة الطرق والوسائل التى تقوم بها مصالح الدولة وينبنى عليها أساس العمران ونماؤه وترقية الأمة إلى مصاف الدول العظام وكيفية استثمار الأموال بالوجه الشرعى المباح الذى لاظلم فيه ولاجور على أحد من الرعية وكيفية حفظ البلاد وحراستها ومعاملة الدول الأجنبية بما لامخالفة للشرع فيه ونحو هذا فكان إذا تكلم فيه تخال أنه لايفكر دائما إلا فيه ولا يشتغل بغيره كأنه أحد كبار الوزراء القائمين باعباء الدولة ومصالح المملكة مع مراعاة الحال الحاضرة وتغير الوقت وتبدل الأطوار حتى كان إذا اجتمع

به أهل السياسة ومكاتبو الجرائد يرون منه مالم يخطر لهم على بال ويتعجبون منه غاية العجب لكونه من علماء الدين وشيوخ التصوف المقبلين على علوم الآخرة والمعرضين عن علوم الدنيا لاسيما وهو لايقرأ الجرائد أصلا بل ويحذر من قراءتها ويستهجن إضاعة الوقت فى الاشتغال بها ولما ظهر بعضهم بالزعامة بفاس وشاع خبره قدم إليه بعض المشتغلين بالسياسة ممن كان مقيما بالبلاد التركية ليكون معيناً له وناصراً ومؤيداً فلما اجتمع به خاب أمله ورأى خلاف ما كان يؤمل ويسمع ثم توجه من فاس إلى طنجة فزار الشيخ وتذاكر معه فى فنه فبهر عقله وقال هذا هو الزعيم على الحقيقة وهكذا يجب أن يكون الزعماء أما الفاسى الذى شددت الرحلة إليه خصوصاً فانى لما جلست أتفاهم معه فى القضية صار ينام ويتركنى فعلمت أنه غير زعيم ولامخلص فى قضية وطنه

وأما الطب فما رأيت عالماً يشاركه فيه بل أعرضوا عنه اتكالا على أطباء الفرنج والمتخرجين على يدهم فيه أما الشيخ فكان شأنه فيه شأن مهرة أطباء العرب الأقدمين بحيث يداوى المريض على الوصف من بعيد بل من مدن أخرى ولا يحصى كم مريض حكم أطباء الافرنج بموته وعدم إمكان علاجه فشفاه الله على يده وبأدويته التى كان يصفها للناس وقد وقفت على بعض مكاتبه لأصحابه فى العلاج أحببت إيراد بعضها ليعرف منها حقيقة الأمر مع الاستفادة .

فمن تلك قوله فى كتاب : والرجل الذى أصابه فى جنبه الأيسر ما أصابه أمره صعب فى الجملة فان الجنب الأيسر علاجه يصعب كثيراً ولكن مره أن يدهن جنبه المذكور بزيت الرند عند النوم ويدلكه دلكا جيداً وعلى رأس كل ثلاثة أيام يدخل الحمام فيمكث فيه نحو ساعة فانه يعافى إن شاء الله تعالى ولا تخبره بصعوبة مرضه لئلا تتغير طبيعته فيزداد مرضه اه .

ومنها أما دواء ابن عمك فليأخذ شيئاً من السمن وليجعله على النار مع مثله من الماء وليتركه حتى يذهب الماء ويبقى السمن ثم يأخذ مثله من

العسل ويزيل رغوته على نار لينة ثم يأخذ مثله من السكر الأحمر ويجعل الثلاثة على نار لينة وتحرك تحريكا جيداً حتى تنعقد وتصير ذاتا واحدة فى قوام الحلواء ثم يجعلها فى آنية فاذا أراد النوم أكل منها مقداراً جيداً فان نومه يرجع كما كان ويزول يبسه وتكثر رطوبته وتقل عنه تلك الأفكار التى تضره أن شاء الله تعالى .

ومنها وصلنا كتابك الشريف وعرفنا ما أشرت إليه مما يعتريك من البرد والعرق الخ . اعلم سيدى أن ما يعتريك مما أشرت إليه سببه ضعف قلبك لاضعف دمك كما قاله لك الطبيب فانه لم يهتد لما أصابك كما هى حالة أطباء الوقت فانهم قلما يحصلون على عين الداء اللهم الا إذا كان داء بارزاً ظاهراً وكيفما كان الحال فدواؤك قريب إن شاء الله تعالى وذلك بأن تأخذ لبن الضأن وتغليه وتجعل فيه شيئاً من السكر وشيئاً من القرنفل بعد دقه وتترك سواه كائنا ما كان إلى أن يتقوى القلب ويرجع إلى حالته وذلك لا يخفى عليك والماء إذا اضطررت اليه لابأس أن تطبخه لكن أقلل من شربه ولاتبالغ فيه أما اللبن فأكثر منه وعما قريب يظهر الأثر إن شاء الله تعالى .

ومنها اما ما كنت تستعمله من البيض فاستعمله وأما الاسهال فلا تتهول منه فانه جيد والقرنفل قلل منه وكثر من اللبن وإن أمكنك أن تستعمل معجون العسل بالحبة السوداء فهو جيد للغاية ولومرة فى اليوم والنفخ الذى يبطنك سببه رطوبة الأمعاء مع ريح منحبس فيها واعلى ما تزال به تلك الرطوبة معجون العسل الذى ذكرناه فاستعمله ولابد وأضف إليه شيئاً من الأدوية المعنوية كالتصدق كل يوم ولو برغيف وقراءة حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبعا صباحا ومثلها مساء فلا ترى بأساً إن شاء الله تعالى .

ومنها واعلم أن الدوخة التى تحصل لك سببها انعقاد البخار الذى يصعد من المعدة إلى الرأس ممزوجاً برطوبة وبرد وعجز الرأس عن تحمله لضعفه

وكثرة برده ويظهر أن زوال تلك الدوخة ربما يحصل بشرب ماء الليمون ممزوجاً بشيء من السكر وقليل من الماء بعد شرب اللبن وليكن الشرب قليلا لئلا تنتشر الرطوبة الموجودة فى المعدة انتشاراً لا تقدر ذاتك عليه لرداءة كيموسها الذى هو عبارة عن الدم المستحيل عن الغذاء فاذا اعتادت الذات الليمون المذكور فلا بأس أن تزيد منه شيئاً على القدر الأول فاذا صعب عليك من أول مرة فادهن رأسك دهناً جيداً بالزيت بشرط أن يكون من الزيتون وإن كان عتيقاً فهو أحسن لـكن تحفظ وقت الدهن وبعده من الريح جهدك والله هو الشافى أما الأكل فدم على الحليب وإن صعب عليك القرنفل فاتركه أسبوعا أو أسبوعين ثم عد إليه إلى أن تكمل راحتك فان اضطررت الى الأكل فـكل الحريرة أو مرق الفراريج الصغار بخبز السميذ وإن وجدت لحماً من خروف صغير فلابأس أن تتناول منه مغرساً أو مغرسين بشرط أن يكون منقى من الجلود والعروق متوسط السمن وبعد أن تستعمل هذا عرفنا بما يحدث لنـكون على بال ورمضان ربما لا يمكنك صومه لأن الحليب للطافته ينهضم سريعا والجوع يحـدث لك منه ضرر كبير معوى وأنت تعلم أن الصوم يحرم فى هذه الحالة فاياك إياك أن تصوم واللبن أكثر من شربه ولا تمل منه ولا يخفاك أن الصدقة من الأدوية التى يسرع نفعها فبادر إليها ولو رغيفاً أو نصفه كل يوم لتجمع بين الدواءين الحسى والمعنوى

ومنها والذى أشرت إليه من النفـخ يظهر لى أنه نوع من الاستسقاء غير أنه خفيف فلتشرب الماء المطفى فيه الحديد بعد احماره جيـداً بالنار وادهن بطنك من خارج بشيء من القطران فان أمكن أن تشرب لبن الابل إن وجد هناك فبادر إليه فان لم تجده فبولها فانه من أنفع الاشياء لنفخ البطن ويكفيك أنه دواء نبوى كما فى صحيح البخارى وقد عملنا نحن بذلك فى حق أقوام من الاخوان فصحوا فى الحال ومنهم من أخبره الأطباء بانه

لايمكن علاجه الا بعد تناول دواء صعب وصفه له طول سنة كاملة فوصفنا له هذا الدواء فصح بعد ثمانية أيام .

ومنها ومن الوقت الذى جاءنى كتابك وأنا أردد النظر فيه لأستخرج منه حقيقة حالك وقد ظهر لى ظهورا بيناً أن حالك طيب غاية والحمد لله وما يصيبك إنما هو من كثرة الدم ورقته بميله إلى مائية يسيرة بسبب عدم أكلك الادام الخشن كاللحم والزيت وخبز البرو من رقته يصيبك ما يصيبك من البرد الشديد عند شرب المرق وأكل الخبز والحريرة لان ما به من الماء يريد ان ينتشر فى الشرايين العصبية وهذه الأمور تقاومه وترده لمحله فيحصل لك ذلك ودواؤه إن شاء الله تعالى يكون بدوام أكل اللوز والسحتر مع السكر وقليل من السمن الذى مر عليه العام أو أكثر إما وحده وإما بخبز يسير مع المداومة على شرب اللبن بالقرنفل الى أن ترجع الطبيعة لمركزها الأول القابل لجميع المأكولات ونرجو الله أن يكون ذلك سريعاً بحول الله .

ومنها والذى أصابك من الوجع الشديد الذى أقعدك فى الفراش ومنعك من الحركة الخ خفيف للغاية وسببه برودة مختفية فى المعدة جاءتها من صلابة الكلى ووصلت الى الاعصاب فوقف دمها عن سيره الطبيعى وبسبب ذلك قل العرق ودواء ذلك يحصل إن شاء الله تعالى باستعمال ماء الرند الحار والجلوس فيه فى الحمام المرة بعد الاخرى مع شرب ماء البيبنوج حاراً عند النوم وإدخال شىء من بخاره إلى الحلق وبعد حصول الراحة خذ أوقية من المصطكى واجعل عليها مقدار خمس حفنات من الماء واجعلها على نار الفحم الخالصة من الدخان واتركها حتى ينقضى نصف الماء ثم صفه واجعل عليه عسلا منزوع الرغوة واجعله على النار واتركه حتى يصير فى قوام الأشربة ثم أنزله واجعله فى زجاجة وخذ عند كل صباح قدر أوقية واجعل عليها قدر حفنة من الماء واشرب ذلك على الريق فانك تعافى من جميع أمراض المعدة بحول الله تعالى .

ومنها والمصابة بالحمى كلفها أن تخضب أطرافها اليدين والرجلين والرأس بالحناء الممزوجة بشيء من الزعفران مع شرب شيء من الليمون الممزوج بماء الورد وقليل من السكر ولتتبخر صباحاً ومساء بشمع العسل حتى يصل ريحه إلى جوفها فانها تعافى إن شاء الله تعالى فان بقيت بها فعرفنا ولابد لنصف لها دواء آخر حتى يحصل الشفاء بحول الله تعالى

قلت ومن عجيب شأنه فى المداواة أنه كما ترى لايصف فى أدويته عشبا غريباً نادر الوجود كما تجده فى أدوية القانون وكامل الصناعة وشرح الأسباب والعلامات والتذكرة وغيرها بل لايصف إلا ماهو متيسر متناول يسهل الحصول عليه المريض أينما كان وكان يرى سلوك هذه الطريق فى المعالجة من الواجب المتعين على أطباء الوقت ويستقبح الاتكال على الأدوية المركبة المجلوبة من بلاد الفرنج لأنه بانقطاعها ينقطع العلاج والمداواة لعجز الطبيب عن معرفة غيره ولذلك لما توجه إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة ذهب لمدرسة الطب الكبرى الموجودة بالقصر العينى لظنه أنه يدرس بها الطب على الطريقة الجامعة بين القديم والجديد وأنه يوجد بالمدرسة بستان فيه النباتات والأعشاب وأن المدرس يعرف الطلبة بكل نبات وخاصيته ومنافعه حسبما فهم من كلام الشريف العلمى صاحب ضياء النبراس فلما دخل إليها لم يجد شيئا من ذلك ووجدهم يدرسون على الطريقة الفرنجية والمدرسون أغلبهم افرنج لايدرسون باللغة العربية فاستنكر ذلك لأنه لايفيد فى معرفة الطبائع والأدواء وأسباب الأمراض ولا مايخص كل طبيعة من العلاج وانما هى أمور ظاهرة غير محققة ولامحررة ولذلك يقل النفع والعلاج بمداواة غالب أطباء الفرنج أضف إلى ذلك أنهم لايعتمدون الاعلى المركبات والمواد الكيماوية المجلوبة من الخارج ولايعتمدون على نباتات البلاد ومعادنها ومنتوجاتها فلو فقدت تلك المجلوبات أو كان الطبيب بأرض لاتوجد فيها لعدم النفع به ولكان هو كآحاد الناس إلا فى الشيء التافه الذى لايذكر

فصـــــل

وأما الانساب فكان إليه المرجع فيها بتلك الأقطار حتى كان يخبر أناساً بنسبهم وكونهم من أهل البيت من غير أن يكون عندهم علم بذلك

وكانت له المشاركة القوية فى غير هـذه العلوم بل كان لفرط ذكائه وقوة جنانه وسرعة إدراكه لايكاد يتوجه إلى فن من الفنون الا ويطلع على حقيقته وقد طلب من الفقيه السيد احمدبو زيد الانجرى وهو من تلامذته فى الطريق أن يأخذ عنه علم الفلك فاعتذر الرجل وامتنع أدبا مع الشيخ فقـال لابد أن نسلك سنةالله المتبعة فى التعليم وذكر له أن جده العارف الـكبيرسيدى احمد ابن عبد المؤمن أخذ هذا العلم على كـبر عن تلميذه فى الطريق الفقيه مفرج فلما لم يجد بداً من إجابة طلبه عين له الـكتاب وضرب الميعـاد للرجوع إلى قراءته فلما حضر وشرع فى القراءة مع الشيخ وافتتح الـكلام فى الموضوع فاجأه الشيخ بمسـائل وقواعد غريبة فى الفن فطوى الفقيه الـكتاب وقبـل يد الشيخ وقال له والله ياسيدى إنك لأعلم منى بهذا الفن ودخلت اليـه يوما يطوالع الملوك وفيها أسماء بعض زعماء مصر وبجانبها أرقام فأول مانظر فيها قال لى ان الشيخ محمودا الفلـكى يقول فى حق سعد زغلول إنهسيموت فى هذا العام حتما فلم تمض إلا شهران أو ثلاثة حتى ورد الخبر بوفاته ،وقضاياه فى علم الجـدول والتصرف بالأوفاق وسر الحرف كثيرة أضربنا عنها صفحا وقـد ذكرنا جملة منها فى الأصل

وأما دروسه فـكانت روضة من رياض الجنة آية فى الابهة والرونق والجمال فما شئت من إملاء وحفظ وترتيل وفصاحة وسرعة إلقـاء لايسكت لحظة ولا يفـكر فيما يقول كأنه يقرأ فاتحة الـكتاب ولا ينطق إلا باللغة العربية الفصحى لاينطق بكلمة واحدة عامية أصلاسواء فى ذلك درس الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق إلا أن درس الحـديث والتفسير يمتـاز عن غـيره

بتؤدة وأبهة وهيبة زائدة مع صيغة جميلة ونغمة مطربة يتمنى المرء لو دام درسه اليوم بأجمعه كان يورد الحديث من الصحيح باسناده ثم يتكلم على تراجم رجاله وأحوالهم ومقالاتهم إن كانوا من أهل الزهد والورع ومواليدهم ووفياتهم ثم ينتقل إلى متن الحديث فيذكر طرقه ومخرجيه وألفاظه ثم يعرب ألفاظه المشكل إعرابها ويتكلم على غريبه ومعناه والأحكام المأخوذة منه وفقه كل مذهب فى المسألة ودليل كل قول ومايرد عليه من الاعتراضات والأجوبة ويطبق نص مختصر خليل على الحديث إن كان موافقاله ثم يختم باستخراج الفوائد والمسائل واذا كان فى معنى الحديث أحاديث أخرى فى الباب أملى جميعها مخرجة معزوة ولوكانت مائة حديث فاذا قرأ حديث سبعة يظلهم الله فى ظله أملى كل الأحاديث الواردة فى الخصال الموجبة لظل الله يوم لاظل إلا ظله واذا قرأ حديثا فيه من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه أملى كل الأحاديث الواردة فى غفران ماتقدم من الذنوب وإذا قرأ حديثا فيمن يموت شهيداً أملى كل الأحاديث الواردة بذلك وهكذا لايكاد يخلو درس من الاملاء مع فصاحة وطلاوة ونور وحلاوة أما فى مجلس الفقه فكان يذكر النصوص الكثيرة بألفاظها فيقبل المقبول ويرد المردود ويزيف ويرجح مع ايضاح المعنى بدون تكرار ولا إعادة كلمة ولا توقف ولا سكوت لحظة واحدة وربما صاح فى درس الفقه والنحو أثناء التقرير بقوله رد بالك إذا رأى من السارد نوماً أو غفلة وربما صفق بيديه أثناء التقرير أى وضع يده على الأخرى شبه المصفق فيسمع لها صوت خفيف لما كان يعتريه من شبه غيبة عن حسه لفرط نشوة وطرب بلذة العلم وتقريره ولم يكن يطالع إلاقدراً قليلا مع أنه كان أواخر تدريسه يجمع ثلاثة دروس فى مجلس واحد يمكث فيه ثلاث ساعات تقريباً فكان يخرج للدرس قبل الظهر بساعة ونصف فيشرع فى قراءة الخلاصة بشرحى المكودى وابن هشام ثم بعد مدة يشرع فى قراءة المختصر فاذا أذن الظهر

وفات قليلا قام وصعد الكرسى وشرع فى قراءةالصحيح لأن درس الخلاصة والمختصر كان لايحضره إلا الطلبة ونجباء العوام ممن له رغبة فى الفقه وأما الصحيح فكان بعد الظهر تجتمع الخلائق من سائر الطبقات لسماعه فكان يصعد على الكرسى وقتئذليسمع الناس وكان قبل ذلك يخرج صباحاً لتدريس لامية الأفعال والمنطق معا فى درس واحد كل ذلك من حفظه وبالقائه السريع بحيث ما يلقيه فى ساعة يلقيه غيره فى عدة ساعات ويعمر به عدة مجالس .

قال فى النسمات كانت دروسه رضى الله عنه عجيبة وقراءته قراءة بحث وتحقيق وتحرير وتدقيق وتلخيص للمسائل وتحريرها مع ما ينضم إلى ذلك من الايرادات والأجوبة هذا معماكان عليهرضى الله عنه من عذوبة المنطق وحلاوته وبلاغة اللسان وفصاحته وحسن التأدية والتبليغ ورونق الترتيب والافهام البليغ حتى إن البليد من الطلبة كان يحوز من الفهم والادراك حظه أماحفظه وإملاؤه فكان لا يجارى فيهما ولا يبارى ويكفى برهاناً على ذلك ما كان يجمعه من الدروس المختلفة متصلا بعضها ببعض فى مجلس واحد فكان يقرأ أولا ألفية ابن مالك بشرح المكودى ولا يقتصر عليه بل يأتى بالكثير من المسائل النحوية ثم يتبعه بقراءة مختصر خليل متصلابه وهو فى مجلسه كان يقرأه بشرح الخرشى ولا يقتصر عليه بل يأتى بكلام الزرقانى وحواشيه للشيخ بنانى والرهونى وبنوه بحاشيته كثيرا وربما أنشد أحياناً عقب نقله وقوله .

إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

ثم بمجرد الفراغ منه يتبعه بقراءة صحيح البخارى لكن كان يقوم من مجلسه الأول فيصعد على الكرسى تعظيماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآلهوسلم وكان يحضر درسهفى الصحيح الجم الغفير من العلماء والطلبة وأعيان البلد وغيرهم حتى إن أعلا صوته لا يبلغ منتهى مجلسه لكثرة الحاضرين وكانت قراءة مدهشة للعقول آخذة بمجامع القلوب لما كان عليه رضى الله

عنه من عجيب الحفظ وغريب الاملاء والتحقيق وحسن الترتيب وبديع التنسيق وكان يملى فى الزمن القليل من الأحاديث مالا يملى غيره فى الزمن الكثير وكان عند قراءته للحديث يكسى حلة البهاء ويعلوه نور وبهجة وسناء حتى يفيض على قلوب الحاضرين ولا يمل أحد من مجلس قراءته ومذاكرته وإن طال ماطال وبالجملة فمن حضر مجلس قراءته لم يقنع بقراءة غيره وان بلغ فى العلوم والتحقيق ماعسى أن يبلغ لان علمه كان علم فتح ووهب لاعلم كسب وقراءته كانت قراءة مجتهد لا قراءة مقلد اه .

وقال صاحب النبذة وأما غيرته فى الدين فهو لا شك الفرد الأول بين المسلمين ممن لا يبارى فى ميدانه ولا يجارى قل فيه حقا هو ممن لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يلتفت فيه لذى سطوة لا سيما فى مجلس وعظه ودروسه إلى أن قال واذا أنعم بدرس ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وفتح مرة صحيح البخارى فشاهدنا كغيرنا من أماليه مايبهر العامة والخاصة وتجد الاعناق حال القراءة مشرئبة لسماع نغمات مثانيه ومثالثه بما لو قدرت على كتب ما يمليه لكان شرحا حافلا مع كون إلقائه من غير تلعثم ولا نحنحة مما تستلذه الاسماع وتصغى اليه القلوب ويغص المسجد بالحاضرين لا سيما من أهل الفضل والدين لما يسمعونه كل يوم من رقائق المواعظ وحقائق العلوم والعرفان مما يزيد الكل تحقيقا بمكانة الرجل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اه

فصل

وكان الشيخ رضى الله عنه عاملا بالسنة وما صح لديه من الدليل من غير نظر إلى مخالفة المذهب ولا ماجرى عليه العمل امتثالا لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم كما هو واجب على كل مسلم موحد لاسيما فى النصف الأخير من عمره ، فانه كان يعلق بذلك ويدعو إليه ، وأمر بكثير من السنن

المهجورة فى مذهب مالك كالتعوذ والبسملة والجهر بالتأمين ورفع اليدين فى الانتقال ووضع اليمين منهما على الشمال والسلام من الصلاة مرتين مع زيادة ورحمة الله والآذان بين يدى الخطيب يوم الجمعة وغير ذلك وكان يعطر مجالسه الخاصة بذكر الاجتهاد والعمل بالسنة ، ويبدى تعجبه من المقلدة الجامدين الجهلة المعرضين عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويناظر فى ذلك ويبالغ فى تقريره ، لاسيما مع كبار الفقهاء وشيوخ المقلدة وقد ناظر مرة بفاس فقيه المغرب سيدى المهدى الوزانى صاحب المعيار والحواشى المتداولة وألزمه الحجة ، لكنه عاند وأصر على الباطل وإنكار الاجتهاد ، وتحريم العمل بالكتاب والسنة ، ووقعت له مناظرة بالمدينة المنورة مع حمدان الونيسى الجزائرى فى محفل عظيم من العلماء فيهم شيخنا الامام سيدى محمد ابن جعفر الكتانى والشيخ توفيق الأيوبى الشامى والشيخ أمين سويد الدمشقى أيضا والشيخ عمر حمدان المحرسى والسيد أبو القاسم الدباغ ومايقرب من عشرين عالما كانوا مجتمعين بضريح سيدنا حمزة رضى الله عنه وبعضهم يسرد تفسير ابن عجيبة ، فمرت مسألة انجر البحث فيها بينهم إلى مخالفة المذهب فتكلم الونيسى بكلام أراد به التنكيت على سيدى أبى القاسم الدباغ لأنه كان من المعلنين بنبذ التقليد والعمل بالسنة وظن الونيسى أنه منفرد بذلك من بين الحاضرين ، فانبرى له الشيخ رضى الله عنه وناظره مناظرة بهرت عقول الحاضرين ، ومكثوا يتحدثون بها طول عمرهم كلما جرى ذكر الشيخ رضى الله عنه حتى ذكره كل من السيد أبى القاسم الدباغ والشيخ عمر حمدان على الانفراد فى أوقات مختلفة ، قالوا : ما كنا نمثل الونيسى أمام الشيخ إلا كطير صغير بين يدى أسد عظيم ، فلما ألزمه الحجة ولم يجد من يد الشيخ مفرا . قال فى حمية وغضب للتقليد والشيطان : ماقاله الله ورسوله أضعه تحت قدمى وما قاله خليل أجعله فوق رأسى ، فقال له الشيخ الآن سقط الكلام معك ولو أخبرتنا بهذا من أول وهلة ما ناظرناك لأننا كنا نظن أنك تناظر عن جهل

بالمسألة وخطأ فى النظر والاعتقاد وحيث وصلت إلى حد الكفر والردة والعناد فلا كلام لنا مع من هذا حاله .

وحضر الشيخ مرة فى وليمة ومعه بعض الفقراء وكانوا صائمين تطوعا فلما حضر الطعام أمرهم بالافطار عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر» فأقام جهلة المقلدة لذلك ضجيجا على عادتهم عند رؤية العمل بالسنة وأكثروا القيل والقال انتصارا للباطل الذى يسمونه المذهب فاجتمع بهم الشيخ وألزمهم الحجة وأبان جهلهم بمذهبهم ، وهكذا كانت طريقته رضى الله عنه يعمل بالسنة ويعتمد فى مناظرته مع المقلدة على المذهب لوجود قول فيه أو قاعدة تقتضى ذلك لعلمه بأن أهل الباطل لا يرضخون إلا لباطلهم ولا يدينون إلا بشركائهم نعوذ بالله من الخذلان وكان يأمرنى إذا كتبت فى مسائل من السنة أن أنصرها بقول المقلدة حتى يمكن نشرها والعمل بها لا بالدليل من الكتاب والسنة اللذين لا يقيم لهما المقلدة وزنا ويعتقدون أن العمل بهما ضلال وبدعة نعوذ بالله من الضلال .

وسافر الشيخ مرة من طنجة إلى غمارة مسيرة ثلاثة أيام ، ولما قرب من بلده وكان يوم جمعة مر على قرية فدخلها ليحضر الجمعة ، فلما رآه الخطيب دهش وتأخر واختفى فقدم أهل القرية الشيخ للخطبة والصلاة فخطب ارتجالا وصلى بهم ثم توجه إلى بلده فشاع الخبر بين فقهاء غمارة فانقسموا قسمين قسم قال لا نعترض على الشيخ لأنه أعلم منا بالمذهب وأعرف بالسنة وقسم حكم ببطلان الصلاة ، فلما بلغه الخبر كتب يستقدمهم اليه ، فلما حضروا ناظرهم فى المسألة وعرفهم ما لم يكن عندهم به علم من مذهبهم ، فاعترفوا إلا جاهلا دأبه العناد والجدال ممن طرد من القضاء وسجن على الزور وأكل أموال الناس بالباطل فانه أصر على العناد لفرط جهله إلى أن توجه إلى فاس ووقف على رسالة مؤلفة فى المسألة لشيخ الجماعة بالمغرب أبى العباس ابن الخياط ، فعند ذلك انقبع تحت جهله .

ومع هذا فان الشيخ رضى الله عنه كان يحب موافقة الفقهاء فيما يراه ويعمل به ولو خارج مذهب مالك كراهة منه للتفرد والاستقلال بالرأى لالتوقف فى الدليل أو شبهة فى العمل به بل فرارا من دعوى الاجتهاد والظهور بما فيه نخر وتبجح وانانية ، فكان يستتر فى جميع ما يختاره باتباع مذهب من المذاهب أو قول فقيه من الفقهاء حتى لا يجيب سائله أو يحتج على معارضه بأن هذا رأيى ومذهبى بل يقول اعتمدنا فى هذه المسألة على مذهب الشافعى أو ابن حنبل أو أبى حنيفة أو على قول فى المذهب حكاه فلان عن فلان أو نص عليه فلان فى كتاب كذا ليقطع ألسنة الجامدين فى التقليد الجاحدين لفضل الله على خلقه ، ولذلك درج أكثر الناس بل كلهم حتى أقرب الناس إليه وأشدهم ملازمة له يعتقد فيه التقليد والتمذهب بمذهب مالك وصاروا يحتجون علينا إذا دعوناهم إلى العمل بالسنة ونبذ الأقوال المخالفة لها من مذهبهم بأن الشيخ الوالد لم يكن على ذلك وأنه كان طول عمره مقلدا ناصرا للمذهب وحاشاه من ذلك ومعاذ الله أن يكون كذلك ونحن والحمد لله ما اهتدينا إلى العمل بالسنة إلا بأمره وتعليمه ولا نبذنا التقليد وراءنا ظهريا إلا باشارته وإرشاده ، ولا هدانا الله وانقذنا من بدعة التقليد إلا باتباعه والاقتداء به والاهتداء بهديه ، ولولاه لكنا من جملة المبتدعة المقلدين ، والحمد لله على فضل الله ومنته ، وإنما أوقعهم فى اعتقادهم ما ذكرناه مع كونه كان فى بداية أمره وعنفوان شبابه وأيام قوته فى تدريس المختصر ينتصر لمذهب مالك ، والراجح المشهور منه على غيره ، حتى أنه لما بلغ إلى موضع سدل اليدين فى الصلاة نصره غاية وايده اتباعا لما عند الشروح لكنه لما اتسع فى العلم وتبحر فى السنة واطلع على الحقيقة رجع عن ذلك وأمر أصحابه بوضع اليمين على الشمال وأمرنا بالتأليف فيه والانتصار له وكان هو ينتصر له فى مجالسه حتى صار بعض من كان يقرأ عليه من الطلبة قديما يعترض عليه بنفس كلامه السابق فى درس المختصر وانتصاره للسدل وما درى الجاهل أن ذلك هو أكبر دليل

على فضل الشيخ رضى الله عنه وكماله وبلوغه رتبة الاجتهاد لأنه لايتغير رأيه وتختلف أقواله إلا المجتهد الباحث عن الحق العامل بالدليل كما يوجد عن أئمة المذهب الأقوال المتعددة فى المسألة الواحدة ولا يوجد لمقلد فى مسألة قولان أبدا ولو بلغ فى العلم أعلى ما بلغ مالم يصل رتبة الاجتهاد لأن النظر فى الدليل هو الذى يوجب التغير وتبدل الرأى كلما استبان له دليل أقوى مما عنده تبعه بخلاف المقلد فانه يعمل بقول إمامه ولا يعرف حق ذلك من باطله بل هو لاعتقاده حقيته يلتزم العمل به ولا يخرج عنه والشيخ رضى الله عنه لم يكن كذلك فلذلك كانت أقواله تختلف وآراؤه تتبدل .

وكان محبا لسائر المذاهب معظمالها مصوبا لجميع الأئمة رضى الله عنهم من جهة اجتهادهم وجلالة منصبهم وعظيم مكانتهم فى العلم والدين فكان يمدح مذهب الشافعى للعمل بالحديث ويمدح كتب أهله لاعتنائهم بالدليل ويمدح مذهب مالك لكونه مذهب عالم أهل المدينة إلا أنه يذم صنيع المتأخرين من المالكية فى الاعراض عن الدليل وكثرة الاختصار المجحف وعدم بسط القول والتعليل ، ويشهد للحنفية بالبراعة فى الفقه وكثرة الفروع ودقة النظر فى استخراجها ويقول هم الفقهاء على الحقيقة إلا أنه يشهد عليهم بالتعصب المفرط الذى اختصوا به من بين أهل المذاهب ويتعجب من إفراطهم فيه غاية ويحكى عنهم نوادر فى ذلك ويمدح مذهب أحمد بن حنبل للوقوف على الوارد غالبا ، ويحب مذهب الزيدية ويعترف بفضلهم وبراعتهم فى الفقه واستنباط المسائل وذكر الدليل فى كتبهم وكان يحبها ويرغب فى الحصول عليها ويسأل عنها بتلهف . لاسيما البحر للامام المهدى والسيل الجرار ونحوهما من الكتب التى يكثر الشوكانى من النقل عنها والاحالة عليها من مؤلفاته ومؤلفات غيره .

وكان يطالع كتب سائر المذاهب كبيرها وصغيرها لاسيما الأم للشافعى وشرح المهذب للنووى وشروح المنهاج للرملى وابن حجر والخطيب والمحلى

وفتح القدير لابن الهمام وحاشية ابن عابدين على الدر المختار ، ويقول إنها بمنزلة حاشية الرهونى فى مذهب مالك بحثا وتحريرا وجمعا ، والفتاوى العالمكرية ويحبها كثيرا لجمعها للاقوال ، أما فتح القدير لابن الهمام فكان يبدى عجبه من صنيع الشارح واتقانه للدليل وايراده طرق الحديث مع الكلام عليه وكان يتمنى أن لو أطال الله عمره فأكمله على ذلك المنهاج لأنه كان لايرى لتكملته قيمة أمام أصله ، وكان يعتنى من كتب الحنابلة بكشف القناع قبل أن يطبع المغنى والفروع لابن مفلح ، فلما طبعا كان مغرما بهما على أنه إذا دعته الحاجة الى تحرير مسألة لا يدع فى مكتبته كتابا فى مذهب من المذاهب إلا ويراجعه ويعلم ما يقوله صاحبه فى المسألة إلا كتب الشيعة الامامية فانه لم يكن بمكتبته منها كتاب أصلا ولتبحره فى المذاهب ومعرفته بجميعها كان لايرى بالانتقال اليها بأسا لمن أراد ذلك وكنت فى بداية طلبى اخترت الانتقال الى مذهب الشافعى لما رأيت كتبهم تتعرض لدليل كل مسألة بخلاف كتب المالكية فانها خالية عن الدليل ، ونشأت من صغرى لاأقبل قولا إلابعد معرفة دليله فحسن لى الانتقال إليه وصار يحثنى على التضلع منه ويرشدنى إلى الكتب النفيسة فيه ويعين لى ما أقدم قراءته وما أؤخره منها ، ولما رحل إخوانى إلى القاهرة لطلب العلم اختار بعضهم الانتقال إلى مذهب أحمد بن حنبل فكتب إليه يحسن له ذلك أيضا ويحثه على إتقانه مع معرفة مذهب مالك الذى هو مذهب البلاد والمشاركة فى غيره .

ولما توجه إلى الشام لزيارة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى رحمه الله وكنت معه . قال له يوما ان مولاى أحمد ترك مذهب مالك وانتقل الى مذهب الشافعى كأنه يريد من الشيخ أن يمنعنى من ذلك ، فقال له هو حر فى نفسه يختار من المذاهب مايشاء فسكت ، وكان عند شيخنا الكتانى رحمه الله نوع من العصبية وميل الى المذهب بل والجنسية مع أنه كان يعمل بالسنة فى كثير من المسائل لكن بشرط موافقة المذهب ولو فى بعض الاحوال

وبشرط أن تكون المسألة فى الآداب والرقائق لا فى الحلال والحرام كما شافهنا به مرارا وذكره فى كتابه سلوك السبيل الواضح فى أن القبض فى الصلوات كلها مشهور وراجح مع أن الواجب سلوكه تقديم قول الله تعالى ورسوله فى ما كل ورد عنهما لافرق بين سنن وآداب ولا بين حلال وحرام وهو فى هذه الطريقة أيضا مقلد لغيره فان المواق نقل فى سنن المهتدين عن بعض شيوخه أنه كان يقول نحن صوفيون محدثون فى الرقائق والآداب فقهاء فى الأحكام والحلال والحرام أو نحو هذه العبارة فان يهدى بها قديم ، وذلك من الغلط البين والخطأ الواضح والسلام .

وكان الشيخ رضى الله عنه محبا للكتب شديد الرغبة فى اقتنائها وتحصيلها ولو بالأثمان العالية التى يستغرب من دفعها فى مثل ما دفعت فيه ولو لم يكن ذلك الثمن متيسرا لديه ، بل كان يستدين أو يبيع شيئا من اللوازم الضرورية ليشترى ما احتاجه من الكتب ، بل قلما يعرض عليه كتاب فيوجد عنده ثمنه الا اشتراه خصوصا فى أواخر عمره حيث كان لا يمسك عنده شيئا من الدنيا أصلا ومع ذلك فكان لا يفوت كتابا يمكنه الحصول عليه ووقع له فى الحصول على الكتب وشرائها نوادر وحكايات يطول شرحها ، وقد ذكرنا جملة منها فى الأصل وكان إذا اشترى كتابا لا يكاد يضعه فى خزانته حتى يستوعبه جميعه أو أهم مقاصده على الأقل وكان لا يقتنى كتب العصريين المتفرنجين المتشبهين بعلوم الفرنج ولا يقرأها وكذلك الجرائد بل كان ينهى عن قراءتها وإضاعة الوقت فيها ويقول ما ضل العالم وانتشرت الأخلاق الفاسدة ومعتقدات المبتدعة والمتفرنجة فيه إلا بواسطة الجرائد فهى والمدارس الافرنجية العامل الوحيد فى إفساد المسلمين وحدثنى بعض أصحابه أنه سمعه بأخرة يقول

لو كنت أكتب لالفت كتابا فى ذم الجرائد والتحذير من قراءتها تأليفاً جيداً أسميه الضرب بالحدائد لقراء الجرائد .

قلت ولعل الله يوفقنى للنيابة عنه فيه كما نبت عنه فى غيره والحمد لله قال الشيخ رضى الله عنه لشدة نفوره من الظهور وما فيه رائحة فخر وتبجح لم يؤلف كتاباً مع أنه لو تصدى للتأليف لكان أسهل عليه من جميع اهل عصره لكثرة حفظه وسعة اطلاعه وشدة استحضاره بحيث يمكنه املاء الكراسة والكراستين فى المسألة الواحدة ومتعلقاتها بدون مراجعة كتاب كما كان يملى ذلك فى مجالس مذاكراته ويجيب به فى مكاتبه لمن كتب إليه .

وقد قال له مرة بعض أصحابه لم لا تؤلف يا سيدى ، فقال له لم يبق شيء تحتاجه الأمة إلا وقد ألف فيه من قبلنا فما علينا الآن إلا أن نشتغل ونقرأ ونعمل بما كتبوه وحققوه .

وسمعته مرة يقول كنت ألفت كتاباً فى العبادة فى مجلد ثم أحرقته .

وذكر العبادى فيما جمعه من ترجمة الشيخ رضى الله عنه قال تحلى مجلسه الشريف يوما بذكر تاليف نجله مولانا أحمد فقلت له يا سيدى إنه ينوب عنكم فى التأليف ، فقال وهو كذلك إن شاء الله فقد سئل القطب أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه عن عدم كتابته ، فقال كتبى أصحابى ، ثم قال رضى الله عنه : وقد كنت مولعاً بالكتابة قبل هذا ، ثم رأيت الوقت لا يساعد فتركت ذلك وأحرقت بعضها ، وكنت ألفت كتاباً فى السيرة النبوية أيام الشبيبة حينما كنت أدرس الهمزية مع الطلبة بغمارة وأظنه لايزال عند بعضهم إلا أن فيه أحاديث موضوعة كنت قلدت فيها بعض المتأخرين كالصبان ، ثم بعد ذلك اتضح لى أنها موضوعة . قال العبادى وله خطب السنة كلها ورسائل فى الطريق نحن على غاية الجد فى جمعها ، وله رسالة النور اللائح فى تكفير

الذنوب والقبايح ألفها بسبب خطبة خطبها ذكر فيها صلاة التسبيح وأحكامها وفضلها فطلب منه بعض أعيان شرفاء وزان كتابة ما سمعه منه فكتب له تلك الرسالة فى صلاة التسبيح وضم إليها غيرها من المكفرات هـ .

قلت وقد عثرت على بعض المكاتب التى أجاب فيها أصحابها عن أسئلة قدموها له أذكرها لتتميم الفائدة .

منها وأمامسألة الجهة التى ذكرها فى الغنية شيخ العارفين وقطب الكاملين من ليس له فى مقامه ثانى سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه وأمدنا بمدده الربانى فليعلم سيدنا أنى قبل أن أراجع الغنية المذكورة صرت أبحث عما يمكن أن يكون جواباً عن الشيخ رضى الله عنه فراجعت ما أمكننى الوقوف عليه من كتب موضوع المسألة كاليواقيت للعارف الشعرانى والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى والمحاسن الغالية لليافعى المطبوعة بهامش كرامات الأولياء للنبهانى فوجدتهم ثلاثتهم برأوا الشيخ من اعتقاد الجهة وصرحوا برجوعه أو دس ذلك عليه فى كتاب الغنية وذلك فى المبحث السابع من اليواقيت ومسائل الكلام من الفتاوى الحديثية وآخر المحاسن الغالية ، ولما رأيت ذلك فى هذه الكتب الثلاثة كفانى عن تطلب غيرها حيث لم يبق داع للجواب عنه برجوعه عن ذلك المعتقد أو دسه عليه ثم راجعت الغنية فوجدت عبارته رضى الله عنه لا تقتضى ما نسبوه إليه غاية ما فى المقام أنه ينكر تأويل الآيات والأحاديث التى تقتضى بظاهرها إثبات العلو والفوق والجهة من غير أن يعتقد معناها الذى تقتضيه اللغة فاعتقاده رضى الله عنه فيهاأنها صفات أثبتها الله تعالى لنفسه وأوجب على عباده أن يصفوه بها ويكلوا بعد ذلك علم حقيقتها اليه سبحانه من غير أن يؤول الفوق بالعلو والعزة والقهر كما هو رأى الاشعرية ولا بالغلبة والاستيلاء كما هو رأيهم أيضاً مع المعتزلة بل ينبغى أن يترك تفسير ذلك والخوض فيه رأساً مع تنزيه الله تعالى عن ظاهر معناها ، وهذا الذى قاله رضى الله عنه هو

معتقد الصحابة والسلف الصالح قاطبة .. وفى مقدمتهم الائمة الأربعة وهذا أيضاً معتقد أكابر الاولياء الذين جعل الله الشيخ فى مقدمة صفوفهم فلم يأت الشيخ فى المقام بما يخدش فى عقيدته ولا بما يشين عرض ديانته وإنما خالف المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية فى عدم التأويل تبعاً للامام أحمد ابن حنبل فانه كان شديد الانكار على المؤولين ويأمر بامرار ما ورد كما ورد من غير اعتقاد معنى يخالف الربوبية وعظمتها والمؤولون كامام الحرمين والغزالى والباقلانى رضى الله عنهم لا ينكرون هذا ، بل يقولون انه الافضل والأولى ، وإنما أولوا خوفاً على العامة أن يفهموا تلك الآيات والأحاديث على ظاهرها فيقعوا في ورطة التجسيم ، وذلك يؤديهم إلى أن يكون الخالق كالمخلوق وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فان الله كان ولا فوق ولا جهة ولا عرش ولا سماء ولا أرض ولا زال سبحانه كما كان فكيف يكون فى جهة من الجهات وهو الذى خلقها وكيف يحتاج إليها وهو الذى أوجدها فهو سبحانه قبل أن يخلقها وبعد أن خلقها هو الله الأحد الصمد موصوف بجميع الكمالات منزه عن سمة الحادثات لا يشك فى هذا مسلم لا من المتقدمين ولا من المتأخرين ولم يأت الشيخ رضى الله عنه بما يخالف هذا وحاشاه من ذلك ، وكيف وهو الرجل الذى لم تنتج الأرحام مثله ولم يسمح الزمان بمشابه له فى ولايته ومعرفته بعده رضى الله عنه وعن جميع أولياء هذا الامة فتأمل هذا وأمعن فيه نظرك فان كفاك وإلا فعرفنا لنتذاكر فى المسألة ان شاء الله تعالى .

قلت ومن جواب الشيخ رضى الله عنه يظهر لك موافقته للسلف ومخالفته للخلف الذين تجهموا فضلوا وأضلوا من قلدهم واعتقد سنيتهم حتى صار يستشكل كلام كبار أهل الله الموافق لما نطق به القرءان وتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه الصحابة والتابعون والسلف الصالح من الايمان بالصفات وامرارها كما جاءت من غير تكذيب ولا تعطيل باسم التأويل إذ لو اراد الله سبحانه وتعالى تأويله لما أنزله بتلك الألفاظ الموهمة للتشبيه

والجهة والتجسيم والموقعة فى الضلال والكفر والبدعة على زعم المتأخرين والله تعالى أنزل القرءان هدى للناس وشفاء لما فى الصدور من الريبة والشكوك والوسواس والأوهام لا ضلالا وحيرة وشكا وريبة محتاجا الى إصلاح زيد وبيان عمرو وتعقب بكر وشرح خالد فقبح الله العقول التى تتقدم بين يدى الله ورسوله وترى أنها أولى بالهداية والبيان ونصيحة العباد من الله ورسوله.

ومنها فاما مسائل الحيض التى أفادها الشبلى لابى عمران فلم أر من تعرض لها فقد راجعت الديباج لابن فرحون والطبقات للشعرانى فلم أر ذكراً لها فيهما على أن اجتماع أبى عمران بالشبلى فيه ما فيه وذلك أن أبا عمران ولد بعد ما توفى الشبلى بنحو ثلاثين سنة فكيف يجتمع وهو لم يوجد بعد اللهم إلا أن يكون أبو عمران المذكور فى القضية غير أبى عمران الفاسى وكيفما كان الحال فلا غرابة فى إفادة الشبلى أبا عمران بتلك المسائل ولو كان أبو عمران من كان فى العلوم الرسمية لأن اهل الكشف والعيان يعلمون من الأشياء ما لا يعلمه منها أهل الرسوم والأفكار لنظر أهل الكشف للاشياء بعين الحقيقة التى هى عليها فى نفس الأمر حتى أنهم يدركون بنور كشفهم حقائق المحدودات على ما هى عليه بخلاف أهل الرسوم والافكار فانهم لا يدركون الا رسومها وخواصها وحدودهم كلها رسوم فى الحقيقة وعند التأمل حسبما أفصح بذلك رئيس أهل الأفكار المعلم الثالث ابن سينا بعد ما أفنى عمره فى تطلب حقائق الأشياء وادراك ما هى عليه فى نفسها وارتكب لادراك ذلك كل طريق يمكن للبشر ارتكابه فلم يحصل من ذلك على طائل بل فى آخر عمره اعترف بأن العقل والفكر لهما حد لا يتعديانه إلا بقوة مفاضة عليهما من الخارج، وتطلبه لأدراك الحق فى الأشياء بنفسه هو الذى تركه متذبذباً فى دينه فانه كان يريد أن يعرف الحق ويصل الى ماينبغى من معرفته بعقله وفكره من غير طريق الأنبياء وسيدهم وامامهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظنا منه أن العقل يفى بذلك وخصوصاً اذا

كاملا فى إدراكه كعقله فخاب ظنه وخرج من الدنيا كما دخل اليها من غير فائدة تنفعه فى معاده كما وقع ذلك لغيره من الفلاسفة المتقدمين عليه والمتأخرين عنه وهذه القوة التى أشار اليها هى القوة المفاضة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى اتباعهم الأولياء لكن من غير مساواة بينهم فيها اذ الأولياء لا يشاركون الانبياء فى شىء من أحوالهم أصلا ولاجل هذه القوة المفاضة عليهم كانت علومهم كلها ضرورية لانظر فيها ولاتفكر أصلا بخلاف غيرهم فان علومهم كلها نظرية مجلوبة بمقدمات وأفكار لا تخلو فى الغالب عن أغلاط وأوهام لقصور الافكار عن الاحاطة بذاتيات الاشياء ولذلك يقع بين أهلها التنازع والتخاصم فترى هذا يقول الحق معه وهذا يقول الحق معه والمسألة واحدة بخلاف علوم الاولياء فانها لاشىء فيها من ذلك لاستيلاء أرواحهم المقدسة على الانوار التى كان منها بروز الاشياء فتعطيهم الاشياء بسبب ذلك علما من نفسها بما هى عليه فى الواقع فأنى يتطرق لهم الغلط والحالة هذه ولهذا قال الاصوليون لا يقع التخالف بين قاطعين أبداً ولما ذكرناه من استيلاء أرواحهم على الانوار التى كان منها بروز الاشياء كانت الاشياء فى نظرهم كالشىء الواحد لاتحاد منشأها فعندهم الماضى والحال والمستقبل نقطة واحدة مايعرف من أولها يعرف من آخرها ولا يغيب عنهم من أمرها شىء حتى أن الواحد منهم لو أراد أن يخبر بما هو آت على ما هو عليه وقت ظهوره لفعل ويخرج كما أخبر من غير زيادة ولا نقصان مع أنه لم يوجد بعد وما ذلك إلا أنه ينظر بعين الروح المحيطة بالزمان وما فيه بدأ ونهاية ولولا تحجير الشارع عليهم لأمكن أن يخبر الواحد منهم بما كان وبما يكون وبتعيين أهل الجنة وأهل النار وأهل السعادة وأهل الشقاء وغير ذلك من شئون الأكوان ولكن لم تتعلق مصلحة العالم بذلك فأمروا بكتم ما يعلمون من شئونه الا من أذن له فى افشاء شىء من ذلك وان وقع وافشى أحدهم شيئا مما علموا عوقب بعقاب لو عوقب به جبل لذاب وتفتت اذا علمت هذا تبين لك يقيناً أنه يمكن للشبلى ومن كان على شاكلته أن يقيد أبا عمران وغيره بألف مسألة من الحيض

مثلا من غير أن تخطر على باله ولا مفهوم للحيض بل سائر أبواب الشريعة وفروعها له أن يفيده فيها بما لا يخطر له على بال ولا يهجس له بخاطر لعدم المناسبة بين فكره وبينها وكفيوعلوم هؤلاء علوم الهام وتحديث وإلقاء في الروع من غير فكر ودراسة ونظر مع إحاطة النور النبوى بعوالمهم الثلاثة المحفوظة من التلبيس بسبب ذلك النور وعلوم الفقهاء وغيرهم علوم فكر وظن وشتان ما بينهما فان علوم الطائفة الأولى لاتردد فيها ولا وهم ولا غلط لأخذها من طريق محفوظ من ذلك وعلوم الطائفة الثانية كلها ظنون وغالبها أغلاط فالطائفة الأولى علومها كالشمس فى رابعة النهار فانها لقوة نورها وكمال اشراقها لا يبقى معها خفاء فى المدركات بوجه من الوجوه ولا يمكن لظلام أن يتسلط عليها وقت سلطانها أبداً والطائفة الثانية علومها كالضوء فى الظلام فانه وان كان فى الاشراق ما كان لا يقع به الظهور الذى يقع بالشمس مع امكان تسلط العوارض التى تزيله عليه كالريح وغيره فافهم وتأمل ولولا ضيق الكتاب لأتينا من هذا بما ترتاح له الافكار وتنشرح به الأسرار ولكن الخير أمام وبالله التوفيق .

وأما أول من أسس الطريقة وهل كان تأسيسها بوحى الخ . فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحى السماوى فى جملة ما أسس من الدين المحمدى إذ هى بلا شك مقام الاحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة التى جعلها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد مابينها واحدا واحدا دينا فقال هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم فغاية ماتدعو اليه الطريقة وتشير اليه هو مقام الاحسان بعد تصحيح الاسلام والايمان ليحرز الداخل فيها والمدعو اليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية فى الدنيا والآخرة والضامنة أيضا لمحرزها كمال الدين فانه كما فى الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بمقام الاحسان الذى هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول فى الطريقة وسلوك

طريق التصوف وجوباً عينيا واستدلوا على ذلك بما هو ظاهر عقلا ونقلا ولسنا الآن بصدد بيان ذلك ، وقد بين القرآن العظيم من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والانابة والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضى والتسليم والزهد والصبر والايثار والصدق والمجاهدة ومخالفة النفس وتكلم على النفس اللوامة والامارة والمطمئنة وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيدين وغير هذا مما تكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضى الله عنهم .

وأما قولك هل لما أسست الطريقة الخ فجوابه يعلم مما قبله فانها إذا كانت من الدين بل هى أشرف أركانه وكانت بوحى كما قلناه وكانت الصحابة بالحالة التى بلغتنا عنهم تواترا من المسارعة إلى امتثال أمر الله كانوا بالضرورة أول داخل فيها وعامل بمقتضاها وذائق لاسرارها وثمراتها ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهد فى الدنيا والمجاهدة لانفسهم ومحبة الله تعالى ورسوله والدار الآخرة والصبر والايثار والرضى والتسليم وغير ذلك من الأخلاق التى يحبها الله ورسوله وتوصل إلى قربهما وهي المعبرعنها بالتصوف والطريقة وكما كانوا رضى الله عنهم على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضاً عليها وإن كانوا دونهم فيها وكذلك كان أتباع الأتباع وهلم جرا إلى أن ظهرت البدع وتأخرت الأعمال وتنافس الناس فى الدنيا وحييت النفوس بعد موتها فتأخرت بذلك أنوار القلوب ووقع ما وقع فى الدين ، وكادت الحقائق تنقلب وكان ابتداء ذلك فى أواخر المائة الأولى من الهجرة ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد أخرى إلى أن وصل إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على الدين فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف فقامت طائفة منهم بحفظ مقام الاسلام وضبط فروعه وقواعده ، وقامت أخرى بحفظ مقام الايمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح ، وقامت أخرى بحفظ مقام الاحسان وضبط أعماله وأحواله فكان من الطائفة الأولى

الأئمة الأربعة وأتباعهم رضى الله عنهم وكان من الطائفة الثانية الأشعرى وأشياخه وأصحابه وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة لما ذكرناه من أنها بوحى إلهى وإنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها ودعائه للعمل بذلك عند ما ظهر التأخر عنها وبهذا السبب نفسه نسبت العقائد إلى الاشعرى والفقه إلى الأئمة الأربعة وغيرهم مع أن الجميع بوحى من الله تعالى .

وأما اذعان ابن عبد السلام للشاذلى فلما ذكرناه سابقا من اتساع علوم الأولياء رضى الله عنهم إلى حد لا يخطر على بال الفقيه ولا يطمع فى شم رائحته وكيف يشم رائحته أو يخطر على باله وهو من وراء ألف ألف حجاب وذلك أن الأولياء رضى الله عنهم يصلون إلى مقام يأخذون فيه العلم عن الله ورسوله بلا واسطة ولا يصلون إلى ذلك المقام حتى يقع لهم المرور على مقامات علية ومراتب سامية كل مقام منها لو حله الفقيه ولو ساعة لرمى ما بيده من العلوم الرسمية إلا القرءان والسنة ورآها جهلا وبطالة بالنسبة لما رأى ولو كان أعلم عالم على وجه الأرض بل لو جمع الى علمه علم جميع العلماء وإلى حكمته حكمة جميع الحكماء لرآى ذلك بالنسبة إلى ذلك المقام كلا شىء وهذا بالنسبة لمقامات مطلق الأولياء أما أقطابهم وكبراؤهم كالشاذلى رضى الله عنه فان عندهم ما يقف العقل عن التصديق به لولا تواتر وجود ذلك عندهم وإذا كانوا بهذه المثابة فكيف لا يخضع ابن عبد السلام وغيره للواحد منهم وعندهم من سر الله والمعرفة به ما لو ألقى على جبل لدك وصار هباء بل يصلون من هذه المقامات الى مقام يستخرج أحدهم جميع العلوم الموجودة على وجه الأرض من أى حرف شاء من حروف القرءان حتى أنه لو انقطعت العلوم من الدنيا لوجدت عند الواحد منهم كما ينبغى وفوق ذلك لا فرق فيه بين العلوم النورانية والظلمانية والدينية والدنيوية من غير مراجعة كتاب ولا مدارسته مع أنوار واسرار تطوف على قلوبهم لو ظهر شىء منها

لحيوان لهام ولمقعد لقام ولاعمى لا بصر فى الظلام وتأمل قوله تعالى لو أنزلنا هذا القرءان على جبل الآية يظهر لك ما قلناه فلما عندهم من هذا وأمثاله مما لا يعرفه إلا هم رضى الله عنهم خضع ابن عبد السلام للشاذلى وغيره لغيره .

وأما ما عند ابن الحاج من أقسام الشيوخ الخمسة فان الأربعة بعد الأول كل واحد منهم يفيد فى التسليك والوصول إلى الله تعالى وان كان بعضهم أعلى من بعض فى ذلك أما الاول فانما يفيد فى التعليم الممزوج بنور تنبسط بسببه أشعة العلم على باطن التلميذ فتنشط جوارحه للعمل بذلك العلم الذى يتعلمه وبذلك يفارق غيره من العلماء المعلمين اما تسليكه للمريد وأخذه بيده ورفعه الحجاب عنه حتى يقول للمريد ها أنت وربك فلا سبيل له اليها لان هذه الحالة لا تكون إلا لمن سلك الطريقة على أيدى الأشياخ العارفين بالله تعالى أما من لم يسلك فلا مطمع له فى التسليك والتربية ولو علم ما علم وعمل من الاعمال ما عمل سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ثم أكمل الشيوخ المذكورين عند ابن الحاج وهم المربى والمرقى والحرفى والكامل هو المربى إذا كان التلميذ قابلا للتربية لجمعه فى السلوك على يده بين الجذب والسلوك والفناء والبقاء وذلك غاية ما يطلب من كمال السالك أما إذا كان المريد غير قابل للتربية لغلظ حجابه وكثافة حسه ورضاه عن نفسه كما هو الواقع فى هذه الأوقات فلا يبعد أن يقال أن الاكمل هو المرقى لأخذه بيد المريد من غير تعب ولا مشقة ولكن قلما تسلم عاقبة المربى بالترقية وأولى وأحرى بالحرفية والكامل مندرج فى المربى فلا يقال كيف وقع تركه وبالجملة هذا مقام يحتاج إلى بسط وطول كلام والمقصود الاقتصار على ما يتعلق بجواب ما سألت عنه على سبيل الاختصار .

ومنها فاما الأوراد والوظائف من الزروقية وحزب البحر وحزب النووى فاذكرها وواظب عليها باذن تام منا وإن وقع وحصل لك منها ملل فى بعض

الأوقات فاتركها حتى يعود اليك نشاطك لتذكرها باستحضار تام وتوجه عام لتجد بركتها وثمرة ذكرها فان الذكر من حيث هو لا ينتفع به صاحبه إلا إذا أقبل عليه بكليته وتوجه اليه بخالص قلبه وما يعتريك من الكسل عن العبادة فى بعض الأوقات سببه برودة حرارة الروح وانقباضها عن الانتشار فى أعضاء التعبد وموجب ذلك اما خوض فيما لا يعنى واما تناول ما فيه حرام أو شبهة واما تطلع إلى الدنيا وشهواتها وحب البقاء فيها فتدخل بسبب هذا ظلمة وبرودة على القلب فتنقبض حرارة الروح من أجلهما فيحصل الكسل والملل من العبادة وتميل الذات بطبعها الى البطالة ودواء ذلك أو لا أن تلتجىء الى الله تعالى فى الاسحار وتطلب منه أن ينقذك من وحشة الغفلة والاعراض والادبار مع ملازمة الاستغفار ، وثانياً أن تستحضر وقت ما يقع لك ذلك ما أنعم الله به عليك من النعم الجليلة التى لا سبب لك فى تحصيلها كالايمان بالله تعالى الذى أتحفك به وحفظك لكتابه العزيز ومعرفتك بأحكام شريعة دينه مع ما أعطاك من السمع والبصر والعافية وغير ذلك من النعم التى لا تحصى وتشكره عليها فى باطنك وترجوه أن يتحفك بجميع ما تحبه كما أتحفك بما ذكرناه وتدوم على هذا الاستحضار وعلى هذا الرجاء حتى يمتلىء قلبك من الفرح به سبحانه فاذا امتلأ من الفرح به امتلأ بأثر ذلك بمحبته فاذا أحست الروح بمحبة الله فى باطنك حييت باذن الله تعالى وانتشرت حرارتها فى الذات كلها فترتحل بسبب ذلك تلك البرودة وتتعشق الذات بطبعها عبادة الله تعالى فلا تشبع ولا تمل منها حتى أنه ربما تمر عليها الأوقات الكثيرة ولا يقع لها شعور بمقتضياتها من طلب الأكل والشرب والنوم والكلام وغير ذلك من أوصاف البشرية القاطعة للعبد عن وصول الأمداد إلا لاهية لقلبه ولا تزال الذات تترقى فى هذا الحال من عبادة إلى عبادة ومن مفضول إلى فاضل ومن فاضل إلى أفضل حتى يستولى عليها النور ويحيط بها ظاهرا وباطنا فتتخلص العبودية بعد ذلك ولا يبقى للذات ميل إلى شىء من الأكوان الظلمانية

والنورانية فاذا تمكنت فى هذا المقام رفع الله عنها الحجاب فى الحال وأشهدها من جلاله وجماله ما تقربه عينها وتثبت به سعادتها إلى أبد الآبد ثم يفاض عليها من مقامات الولاية والمعرفة به سبحانه ما يناسب قدرها وصدقها إلى آخر ما يقع للسائرين إلى الله جعلنا الله وإياك منهم بفضله وكرمه آمين فدم على هذا ثم إياك والالتفات الى غير الله على أى حالة كنت .

وأما الشرط فاياك ثم اياك أن تتأخر عنه فانه من أرفع العبادات وأشرف الحالات ويكفيك فيه أنك تظل يومك وليلك تعلم كتاب الله لأولاد المسلمين وتدعوهم بسببه الى توحيد الله تعالى وعبادة رب العالمين مع ما ينضم الى ذلك من ملازمة بيت الله الذى قال الله تعالى فيمن يلازمه انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية وإقام الصلوات الخمس فى أوقاتها والأذان لها خمس مرات فى اليوم الى غير هذا من العبادات التى لو ظفر الانسان بواحدة منها لكفته يوم القيامة فكيف بها اذا اجتمعت.

وأما ما يقع للفقهاء الذين يقرئون الصبيان من عدم الالتفات الى العبادة والتخلق بالأخلاق النبوية المحمدية فليس الشرط هو الذى أوجب لهم ذلك وانما أوجبه لهم عدم تطلعهم الى العبادة وعدم تشوقهم الى معرفة الله ومعرفة أخلاق حبيبه صلى الله عليه وسلم اذ المعرفة بالله وبرسوله لا ينالها الا من تشوق اليها وتطلبها وارتكب أسبابها التى أشرنا اليها سابقا والتى ألف فيها القوم العارفون بالله كتبهم ورسائلهم ، وأما من يعبد الله تعالى ويتلو القرآن ولا همة له فى معرفة الله ولا عنده ميل اليها كغالب أحوال المدرسين فهو لا يناالها ولو بقى على عبادته الدهر كله فاعرف هذا واعمل عليه والسلام .

ومنها وحديث البخارى لا إشكال فيه اذ لا يأتى الاشكال الا لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الشريفة على سبيل التلاوة وهو انما أتى بها على سبيل الاستشهاد لما ذكره من حكم تلك المسألة والقرآن إذا استشهد به المستشهد لحكم من الاحكام أو أتى به تمثيلا لوعظ أو تذكرة لا يلزم أن

يؤتى به على وجهه من غير زيادة ولا نقصان لاتفاق السلف والخلف على جواز ذلك بالحذف والزيادة عند استعماله ويسمونه ضرب مثل وتمثيلا وربما سموه اقتباسا بحسب اختلاف المورد، وقد كثر ذلك فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين واتباعهم وهلم جرا، ولم ينكر احد منهم نقص حرف او زيادته اذا لم يقصد التلاوة وجىء بالآية لما ذكرناه فما ورد من ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم مع نقص حرف من التلاوة قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث للترمذى اذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته وخلقه فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير بحذف الهاء من تفعلوا مع أن التلاوة باثباتها ومما جاء عنه مع ابدال حرف من كلمة قوله صلى الله عليه وسلم من تكلم والامام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا مع أن التلاوة كمثل الى غير هذا مما يطول جلبه من الاحاديث أما ما ورد عن الصحابة من هذا فشىء يفوق الحصر وكذا ما ورد عن التابعين وأتباعهم الى وقتنا هذا. وقد بسط هذه المسألة الحافظ السيوطى فى كشف الالتباس عن جواز ضرب المثل من القرآن والاقتباس أو كما هو اسمها فانه غاب عنى اسمها وأشار الى شىء منها فى آخر عقود الجمان نظما وشرحا وسبقه الى ذلك مع ايراد نصوص الائمة العارف ابن باخلا فى شرح حزب البحر فانظر ذلك فيه اذا عرفت هذا ظهر لك انه لا اشكال فى الحديث وانه يقرأ كما قلته من غير تبديل ولا زيادة واو لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد التلاوة وانما قصد تقرير ذلك الحكم السابق بالآية الشريفة.

ومنها واما رؤيا الشيخ أحمد خادم الحجرة وأمره بابلاغ تلك الوصية فلا يخفاك أن رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيها وما يأمر به كذلك فان أمر بما هو متعلق بالدنيا من غير دخل فى الدين فلا شك فى قبول ذلك وتعين العمل به على الرائى ولابد أن يجد ما امره به صلى الله عليه وسلم وان أمر بما هو متعلق بالدين فان امر بواجب او مندوب او ما يندرج تحتهما

تعين قبوله والعمل به ودل امره بذلك على مصلحة تامة تعلقت بذلك المأمور به في الحال للرائي ولمن صدقه واراد ان يعمل بعمله لأن امره صلى الله عليه وسلم بمثل هذا لا يهدر وان امر بما هو محظور في شرعه الشريف وجب تأويله وصرف الرؤيا عن ظاهرها لانه صلى الله عليه وسلم لا يأمر بغير الحق وبما يخالف الشرع الشريف اصلا هذا حكم ما يأمر به صلى الله عليه وسلم في الرؤيا لكل احد كائنا من كان اما رؤيا الشيخ احمد بالخصوص فأنت تعلم أنه لا يقبل رواية احد في الدين الا اذا عرفت عينه وتحققت عدالته ، اما اذا جهلت عينه وعدالته كحال الشيخ احمد هذا فانه مجهول العين والعدالة فروايته مردودة اجماعا كما في كتب الأصول ووصيته ما وافق منها الشرع الشريف قبلناه لا لرؤياه بل لموافقته لما هو معروف من الشرع وما خالفه منها رددناه عليه وعلى غيره لان الدين قد تم وكمل فلا يحتاج إلى رؤيا احد ولا وصيته هذا ما يتعلق بتلك الرؤيا في الحال على سبيل الاجمال والاختصار وان اردت بسط العبارة عليها وتتبعها كلمة كلمة فعرفنا يصلك ذلك حالا ان شاء الله تعالى .

ومنها : اما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها اختلافا طويلا فقال ابن اسحاق في جماعة من اهل العلم ان الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت بغير امام ولا دعاء من الدعوات المعروفة في صلاة الجنائز وانما كان الصحابة رضى الله عنهم يدخلون افواجا افواجا فيقفون ويدعون ويصدقونه في رسالته ثم يخرجون وتدخل طائفة اخرى ثم تفعل كذلك وهكذا واستدل من قال هذا بأمرين اولهما ان الصلاة المشروعة في الجنائز إنما شرعت شفاعة للميت وهو صلى الله عليه وسلم غنى عن شفاعة غيره له ثانيها ان الله تعالى أخبر انه يصلي عليه وملائكته وطلب من المؤمنين ذلك ، قال السهيلي وهذا الطلب يشمله صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً فالصلاة عليه إذاً انما كانت بان يقول كل واحد اللهم صل على سيدنا محمد الخ الصلاة

الابراهيمية ، ثم يدعو لنفسه ويصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رسالته ثم ينصرف الى حال سبيله . وذهب الجمهور إلى أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت كالصلاة المعهودة فى الجنائز . قال القاضى عياض والنووى وهو الصحيح الذى لا يلتفت إلى غيره ، لكن اتفقوا على أنها لم تكن بامام لقول سيدنا على كرم الله وجهه كما رواه ابن سعد والبيهقى هو إمامكم حياً وميتاً ، فلا يقدم عليه واحد ، وكذلك اتفقوا على أنهم لم يدعوا حال صلاتهم بدعاء الجنائز ، وإنما كانوا يقولون كما رواه ابن سعد والبيهقى أيضاً « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله ، اللهم إنا نشهدك أن سيدنا محمداً قد بلغ ما أنزل عليه ونصح لأمته وجاهد فى سبيلك حتى أعز الله كلمته ، فاجعلنا نتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده ، واجمع بيننا وبينه » ثم يقولون « آمين » يفعل هذا كل واحد منفرداً بعد كل تكبيرة من التكبيرات الأربع ، والحال أنهم صفوف صفوف كما قدمنا ، هذا هو الصحيح فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .

واما الخرطال فالذى يظهر من مذهبنا ومذهب الشافعية أنه لا زكاة فيه لأنهم وان عللوا ما فيه الزكاة بالاقتيات والادخار ، فقد اشترطوا فيه أن يكون اقتياته معروفاً عند الخاصة والعامة ولو فى بلد المقتات . أما ما كان مختلفاً فيه هل هو مقتات أم لا كهذا فالذى ينبغى الجزم به عدم الزكاة فيه ، ولهذا اتفق شراح المختصر ومحشوه على تخصيص الزكاة بالأنواع العشرين المعروفة للاتفاق على وجود الاقتيات بها وأخرجوا كرسنة من الأنواع العشرين ، وقالوا انها الى العلف أقرب . واختلفوا فى النين . والمشهور عدم الزكاة فيه مع أن الاقتيات فيه محقق بلا شك ، حتى قال الشيخ الرهونى فى حواشيه على كبير ميارة . ان القول بالزكاة فيه هو الذى ينبغى التعويل عليه ، بل قال لو كان عنده

منه نصاب لزكاه ، ومع هذا لم يلتفتوا إلى قوله لأجل ما وقع فيه من الخلاف وهل هو مما يقتات أو لا ، واذا كان هذا فى التين المشاهد اقتياته عند القبائل الجبلية ، فما ذا يقال فى الخرطال الذى لم يصل اقتياته إلى درجة الشك فضلا عن الظن فضلا عن التحقيق والقطع . وبالجملة فالذى تحصل لنا من مراجعة كتب المذهب هو عدم الزكاة فى الخرطال فتيقن هذا وكن منه على بال . نعم على مذهب الحنفية الذين لا يشترطون اقتياتاً ولا ادخاراً ، بل ولا نصابا ففيه الزكاة ولا إشكال . ولولا خشية الطول لذكرنا دليلهم ودليلنا ومع من الحق فى ذلك .

ومنها وما يذبح على ضرائح الأولياء حسبما جرت به عادة المسلمين فى هذه الأعصار وقبلها لا يخلو حال ذابحه إما أن يعتقد أن الولى المذبوح عليه يضر وينفع بذاته ، وهذا حكمه حرمة أكل ذبيحته لكونه كافرا باعتقاده ان لله شريكا يضر وينفع ، وإما أن يعتقد أن الولى لا ينفع ولا يضر بذاته ، ولكن جعل الله فيه قوة بها يضر وينفع ، وحكم هذا كراهة أكل ذبيحته وهو فاسق باعتقاده التأثير بالقوة المودعة فى المؤثر . وإما أن يعتقد أن الولى لا يضر ولا ينفع لا بذاته ولا بقوة مودعة فيه ، ولكن جرت عادة الله بقضاء الحوائج عند الذبح والتعلق بالأولياء ، وهذا حكمه جواز أكل ذبيحته من غير كراهة ، فان جهل حال الذابح ولم يعرف من أى قسم هو حمل على القسم الجائز ان كان الغالب على أهل البلد معرفة التوحيد ومخالطة أهله ، أو كان فيهم الموحد وغيره فالورع ترك أكل الذبيحة ، هذا هو الذى يؤخذ من شراح المختصر ، وشرح الزياتى على ذكاة خاله ، ونصوص كل قسم من هذه الاقسام موجودة فتأمل هذا ، وانظر ما هو واقع الآن بهذه البلدة من أى قسم من هذه الاقسام هو يظهر لك حكمه والسلام .

ومنها وحديث « لا يبطل حق امرىء مسلم وان قدم » معناه أن حق المسلم لا يضيع بقدمه . فمن كان له مثلا حق على شخص بحجة ثابتة

شرعا وسكت عن طلبه المدة الطويلة كالثلاثين والأربعين سنة ثم قام يطلبه فانه يستحقه ولا يهدر حقه بسكوته عن طلبه المدة المذكورة وأما رتبته من الصحة والحسن والضعف ومن خرجه من المحدثين فانى أعرف أن الحطاب ذكره آخر الشهادات من شرحه على المختصر ناقلا له عن ابن رشد ولم يعزه لأحد ولا تكلم على رتبته وكذلك فعل من نقله عنه كالزرقانى بالمحل المذكور والشيخ الرهونى فى حواشيه عليه والشيخ التاودى صدر البيوع من شرحه على التحفة والشيخ التسولى وجميعهم يسلم الاستدلال به على المعنى الذى قررناه أما فى كتب الحديث فلم يوجد له أثر ولا ذكر فيما رأيناه منها

ومنها وحديث ليس منامن لم يتعاظم بالعلم ذكره ابن الحاج فى حواشيه على المكودى حديثا وتبعه على ذلك سيدى المهدى الوزانى فى حواشيه على الاستعارة وغيرها من حواشيه وأولا ظاهره المقتضى لطلب التعاظم بالعلم وهما تبعا فى ذلك الطرنباطى فى حواشيه على الخلاصة وثلاثتهم لم يعزوه لكتاب من الكتب الحديثية على عادتهم فى ذكر مايستدلون به من الأحاديث أما كتب السنة المسندة التى هى عمدة كتب السنة فلا يوجد فى شىء منها .

ومنها وقد تعجبت من بيع من باع شرح اللقانى الكبير والأجهورى على المختصر مع ماهو مكتوب عليهما من الوقف فى غالب الأوراق وإن كان ذلك لا يضر شرعاً لما نص عليه البرزلى من أن كتابة لفظ الوقف على كتاب من غير اشهاد لا يمنع من بيعه وتملكه ونقله عنه جماعة من المتأخرين وسلموه كابن هلال والسجلماسى فى عمله المطلق وشرحه والحمد لله على خلاف العلماء فانه رحمة ومثل ما قاله البرزلى للحنفية فان الوقف عندهم لا يثبت حتى يحكم به الحاكم .

ومنها أما الحديث الذى أخبركم به ذلك المخبر فهو بلا شك مختلق موضوع ومخترع مصنوع ليس عليه أثر من طلاوة النبوة ولا هيمنة من حلاوة الرسالة

لفظه فى غاية الركاكة ومعناه بلغ الغاية فى السماجة وقد عد علماء الحديث من علامة وضعه ركاكة لفظه وبرودة معناه بحيث إذا سمعه السامع لا يخضع له سره ولا يقبله عقله ولهذا قال ابن الجوزى إن الحديث المنكر إذا سمعه الطالب يقشعر منه جلده وينفر منه قلبه وقال الربيع بن خثيم إن للحديث ضوء كضوء النهار ولغيره ظلمة كظلمة الليل نعم معناه صحيح بلا إشكال فقد ورد فى هذه العجائب العصرية من الأحاديث مالا يدخل تحت حصر منها ماهو صحيح وحسن . ومنها ما هو ضعيف إلا أنه منجبر بكثرة شواهده ومتابعته فصار من المقبول المستحسن فما من شىء من هذه المخترعات العصرية الا ويوجد حديث يشير اليها إما بصراحته واما بتضمنه والتزامه فصلى الله على هذا الرسول العظيم الذى أخبره الله بما كان وما يكون وأطلعه على مالم يطلع عليه غيره من السر المكنون .

قلت والحديث المذكور سألت عنه من أرسل اليه الشيخ هذا الجواب فكتب إلى بأنه كان بوجدة فاجتمع بها ببعض علماء الجزائر وتذاكرا فى المخترعات الوقتية فأورد ذلك العالم حديثاً مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا نطق الحديد وقرب البعيد فالأمر قريب غير بعيد وهو حديث موضوع كما قال الشيخ رضى الله عنه ومثله حديث افتراه بعض علماء الأزهر وادعى أنه فى صحيح البخارى وهو ما نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أنه قال إنكم ستجيئون أو ستفدون إلى المدينة على صفائح من حديد وفولاذ .

أما ما أشار اليه الشيخ من ورود الأحاديث بالاشارة إلى المخترعات العصرية فقد يستغرب القارىء ذلك ويتشوف إلى الوقوف عليها فليعلم أن الأحاديث بذلك على قسمين قسم اجمالى وقسم تفصيلى ووردت الاشارة اليها فى القرآن العظيم .

أما الاجمالى فروى الطبرانى من حديث سمرة قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها وترون الأمور العظام التى لم تكونوا ترونها ففى هـذا الحديث اشارة إلى سكة الحديد التى تزال الجبال من أماكنها فى سائر البلاد الجبلية التى تمد فيها شرائطها وأشار بقوله وترون الأمور العظام التى لم تكونوا ترونها إلى سائر المخترعات الغريبة من أوطمبلات ووابورات وطيارات وغواصات وتليفون وتلغراف وراديو وكهرباء وغير ذلك مما حدث أو سيحدث بعد .

ومن أعجب العجب أن كثيراً من الناس بالمشرق والمغرب سألنى مراراً هل ورد فى الحديث النبوى ما يشير إلى هذه المخترعات العجيبة المدهشة فأجيبهم بما ورد فى ذلك وشرعت فى كتابة تأليف فيه لم يبيض بعد ثم وجدت فى الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم بتساؤلهم هذا أيضاً عن هذه العجائب وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البزار والطبرانى فى حديث سمرة المذكور سترون قبل أن تقوم الساعة أشياء ستنكرونها عظاما تقولون هل كنا حدثنا بهذا فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله تعالى واعلموا أنها أوائل الساعة حتى قال سوف ترون جبالا تزول قبل حق الصيحة الحديث فصلى الله على هـذا الرسول العظيم والنبى الكريم المؤيد بالمعجزات الظاهرة والخوارق الباهرة .

وأما التفصيل فالطائرات اليوم على نوعين نوع خاص للتجارة والبريد وركوب التجار والسواح ونوع خاص للحرب ورمى القنابل .

أما طائرات النقل والتجارة فقد روى ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى لا تنطح ذات قرن جماء وحتى يبعث الغلام الشيخ بريداً بين الافقين وحتى يبلغ التاجر بين الافقين فلا يجد ربحاً .

وفى رواية لا تقوم الساعة حتى يكون السلام على المعرفة وحتى تتخذ المساجد طرقا فلا يسجد لله فيها وحتى يبعث الغلام الشيخ بريداً بين الأفقين

وحتى يبلغ التاجر بين الأفقين فلا يجد ربحا رواها الطبرانى وأصل الحديث فى مسند أحمد فارسال الغلام الشيخ بريداً بين الأفقين و بلوغ التاجر بين الأفقين إنما هو بالطائرة وهو واقع بكثرة فان غالب التجار اليوم ينتقلون فى حركات التجارة بالطيارات ومنهم من لا يربح شيئاً كما قال النبى صلى الله عليه وسلم

وأما الطائرات الحربية ففى قوله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم الآية إشارة إلى الطائرات الحربية والغواصات بل هى ظاهرة فى ذلك لا سيما وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى تفسيرها أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد رواه أحمد من حديث سعد بن أبى وقاص بل مع هذا الحديث يجزم بأن الآية واردة فى هذا لا فى غيره مما ذكره المفسرون وهى أيضاً شاملة للالغام التى تزرع فى الأرض وتنفجر من تحت الأرجل .

وكذلك قول الله تعالى (والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع) فانه وصف للطائرات الحربية بجميع حركاتها وأفعالها تعصف بقنابلها وهى تحتمل معنيين فى اللغة تترك الناس كعصف مأكول وتميل أحياناً عن هدفها وهذا معنى العصف فى اللغة وتنشر المنشورات فى ميادين القتال على الجنود وفى المدن على الأهالى والسكان بالدعاية والأخبار عن الحقائق التى تسترها عنهم حكومتهم كما هو الواقع اليوم وتفرق بين الجموع والكتائب فرقاً لأن الرعب بها والهزيمة أشد من غيرها بحيث لايثبت تحتها فرد ولا جمع بل بمجرد رؤيتها يقع الفرار والتخفى تحت الكهوف والملاجىء وتلقى ذكراً فى المنشورات عذراً أو نذراً تنذر وتخوف وتهدد وتوعد وربما اعتذرت عن بعض ضربها للاماكن البريئة كما هو واقع ومشاهد وربما أرسلتها بين يدى هجومها وضربها انذاراً وطلباً للخضوع .

وأما السيارات على اختلاف أنواعها فوردت فيها أحاديث كثيرة مصرحة

وملوحة فمن الأحاديث المصرحة ما رواه أبو يعلى بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يقترب الزمان وتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاحتراق الحزمة فهذا حال السيارات وقدر طيها للمسافات .

وورد في بعض الاحاديث الأخبار بتقارب الأسواق وذلك بسبب السيارات أيضاً وان فهم العلماء أن ذلك بكثرتها وقرب بعضها من بعض والواقع خلاف ذلك لأنهم لم يكن في زمانهم سيارات حتى يحملوا الأحاديث عليها كما هو الواجب لان الأسواق لم تكثر عما كانت عليه كثرة يقرب بعضها من بعض بل لم تكثر أصلا ولا تزال كما كانت وإنما قربت بسبب السيارات

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها والقلاص الجمال وإنما يترك السعي عليها استغناء عنها بالسيارات وقد ظهر أثر ذلك في الحجاز فانه مع عدم تعبيد الطريق لسير السيارات وكون السفر فيها لا يزال متعباً ومعرضاً للخطر بانكسارها في الرمال والاحجار لم يبق أحد يركب القلاص إلا القليل ممن لا يستطيع دفع ثمن السفر فيها فاذا ما عبدت الطرق وسهل السفر فيها ورخص ثمنه فان السعي على القلاص يترك تماماً في الحجاز كما ترك في غيره طبقاً لما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

ويشير الى هذا أيضاً قول الله تعالى وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون فان مثل الفلك المشحون الذي يركب هو السيارات وبابور السكة الحديد لا الجمال كما يقوله المفسرون المعذورون لعدم وجود ذلك في زمانهم .

ومن الاحاديث المشيرة إلى ذلك حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال إن بين يدى الساعة تسليم الخاصة وفى لفظ الحاجة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وحتى يخرج الرجل بماله إلى طرف الأرض فيرجع فيقول لم أربح شيئاً رواه أحمد والحاكم واللفظ له . وعند أحمد وابى نعيم فى التاريخ من حديث عمرو بن تغلب نحوه فما فشت التجارة حتى دخل فيها النساء بكثرة وصرن يعن أزواجهن فيها إلا بظهور الوابور والسيارات كما هو مشاهد الآن فى تنقل النسوة بالبضائع من مأكولات وملبوسات من مدن إلى أخرى لسهولة ذلك عليهن مع ركوب السيارات والوابور الحديدى ولم نكن نرى ذلك منهن أيام كان التنقل على البهايم ولا كان يخطر ببال امرأة أن تسافر فى تجارة مسافة نصف يوم فضلا عن يومين وثلاثة وهكذا صار يخرج الرجل إلى أطراف الأرض فلا يربح شيئاً لكثرة انتشار البضائع ووجودها فى كل الأماكن بواسطة السيارات بخلاف ما قبل ذلك .

وقال الديلمى فى مسند الفردوس أخبرنا أبى أخبرنا أبو الحسين بن النقور أخبرنا الكنانى حدثنا يعقوب بن ابراهيم البزار حدثنا على بن مسلم ثنا ابن ابى فديك عن عبد الله بن أبى يحيى عن سعيد بن أبى هند عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة ، فهذا لم يقع الا فى زمن وصول وابور السكة الحديد من الشام إلى المدينة المنورة فانه كان كثير من أهلها ينزلون إلى الشام ابتغاء الفسحة والصحة وهكذا يعود ذلك ان عاد وصولها أما بدونها فلا يتصور الخروج من المدينة إلى الشام ابتغاء الصحة مع وجود التعب العظيم ومقاساة أنواع العذاب من حر وبرد وعطش وجوع وألم بسبب ركوب ظهور الجمال ما يقرب من شهر ذهاباً ومثله إياباً لأجل ابتغاء الصحة بل ما كان يتوجه إليه فى الحاجة اللازمة إلا أصحاب الضرورة الأقوياء فى ابدانهم الذين هم غير محتاجين إلى صحة كالتجار الضاربين فى الأرض من البدو الذين اعتادوا ذلك .

وأما الراديو والتليفون فيشير اليهما قول الله تعالى ويقذفون بالغيب من من مكان بعيد بل هى ظاهرة فيهما ويشير إلى إذاعة المقالات العلمية فى الراديو الخبر الآتى فى المطابع .

فقد قال الدارمى فى سننه أخبرنا مخلد بن مالك عن حجاج بن محمد عن ليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية يرفع الحديث ان الله قال أبث العلم فى آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فاذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحق عليهم .

ورواه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة أبى الزاهرية من رواية ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية به إلا أنه قال بلغنى فى بعض الكتب فذكر مثله وانتشار العلم قد حصل بسبب ظهور المطابع التى كثرت الكتب بطبعها وصارت تدخل فى يد الناس كافة إلا أن الحديث يفيد أن الراديو سيزيد انتشاراً فى العالم حتى يمتلكه كل غنى وفقير ويوجد فى أغلب البيوت وانها ستكثر المحاضرات العلمية فيه حتى يعلم ذلك من طريقه النساء فى البيوت والخدم والعبيد وغيرهم فيقع ما أخبر الله تعالى به نسأل الله اللطف والسلامة والمغفرة بمنه .

« فائدة » ستخترع فى المستقبل أمور أخرى لم تظهر بعد منها أحذية ونعال فيها آلات فوتوغرافية أو نحوها يرتسم فيها كل ما يقابلها أو فونوغرافية ينحبس فيها كل صوت قريب منها وكذلك سياط بهذه المثابة تستعمل فى الجاسوسية وتوضع أمام من لم يشعر بها ينطق ويتكلم أو يفعل ما يريد وكل ذلك يرتسم وينحبس فى ذلك الحذاء أو السوط فيكون مخبراً به وشاهداً عليه ويتركه الرجل فى بيته بين أهله فاذا رجع أخبره بجميع ما فعلوه هكذا وردت به السنة وهو وإن لم يظهر بعد فقد ظهرت بعض انواعه .

فصـــل

ومن رسائله الى الفقراء رسالة الى أهل طنجة أرسلها اليهم فى سفرة سافرها ونصها : اخواننا فى الله وأحباؤنا فيه السادات الاجلة البدور الأهلة الذاكرون الله بالزاوية الدرقاوية من الحضرة الطنجاوية صغيراً وكبيراً السلام عليكم ورحمة الله ما قامت الأشياء بالله أما بعد فموجبه السؤال عنكم وعن كافة احوالكم أجراها المولى على وفق آمالكم وإن تفضلتم بالسؤال عن عبدكم ومحبكم فانه لا بأس عليه الا ما يجده من ألم فراقكم والبعد عنكم نطلب الله أن يجمعنا معكم قريباً غير بعيد هذا واعلموا رحمكم الله أن الانسان إذا كان ممتثلا لأمر الله مجتنباً لنهيه بظاهره وباطنه متحققاً مع ذلك فى الظاهر بالعبودية التى هى الذل والفقر والضعف والمسكنة وعدم الانتصار للنفس ومتحققاً فى الباطن بالحرية التى هى الحلم والكرم والصدق والمحبة والثقة بالله وحسن الظن به والرضى والايثار والزهد والاكتفاء بالله وغير ذلك من أخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الانسان لا محالة عارفاً بالله مستغرقاً فى شهود عظمة الله لا يعرف غير الله ولا يميل لسواه رفض فى الله كل شىء وخلصه الله من كل شىء فهو أبدا يهيم فى الله ويتلذذ بمشاهدة قدسه وسناه ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار لا يفرح بشىء سوى الله ولا يحزن على شىء أزال الحق سبحانه عنه الحجب والاستار وأكرمه بالمعارف والأسرار فانيا عن وجوده باقيا بشهوده ذاته مع الخلق وقلبه مع الحق يأخذ من كل شىء ولا يأخذ منه شىء يتقرب الى الله بكل شىء ولا يحجبه عن الله شىء حركاته وسكناته كلها لله وبالله ، ليس للشيطان عليه من سبيل لأنه عبد الله ، ومن كان عبد الله تولاه الله ، ومن تولاه كفاه إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فما حجب القلوب عن علام الغيوب إلا عدم العبودية ، فلو وجدت لوجد الخير كله ،

وحيث فقدت فقد الخير كله ، فما اتصف أحد بما ذكرنا إلا وكان من الأولياء الكاملين لأنه تخلق بسنة سيد المرسلين ، ولا اتصف بأضدادها إلا وكان من الشياطين ، ولو كان عند الناس من الصالحين وأنتم يا إخواننا لكم إن شاء الله المعرفة الكبيرة والولاية العظيمة بحسب مالكم من الصدق فى العبودية التى هى سبب للعلوم الالهية ، فأنتم فى الزيادة بفضل الله شعرتم بذلك أم لا . وستعرفون ذلك ، ولا بد لكل واحد منكم أن يكون منه ما يكون إن ثبت فى باب الله وفى صحبتنا ، إذ بالثبات مع بعضنا يكون لنا ولكم ما كان لمن قبلنا من أولياء الله تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين . المرء على دين خليله فاثبتوا ولا بد ولا بد فى اخلاص العبودية لله ، ولا تلتفتوا لشىء من الأشياء ، ففى الله كفاية ، وارتكبوا شرائع الطريق لتلوح عليكم أنوار المعارف والتحقيق ، وتأدبوا بآداب الأولياء لتكونوا من المخصوصين الاصفياء ، فبالآداب تفتح الابواب ، وبارتكاب الشروط يذاق المشروط واسمعوا ما أقوله لكم وافهموه واعملوا به فانكم فى الحين تعرفون ربكم وتصلون إلى مناكم ، وهو أنى أحبكم ان يكون لكم القصد الصحيح والصدق الصريح والآداب المرضية والاحوال الزكية وحفظ الحرمة وحسن الخدمة ورفع الهمة ونفوذ العزيمة وخلع العذار والذل والانكسار والبذل والايثار وصحبة العارفين الاخيار وبذل المجهود فى الطاعة والاذكار . أما القصد الصحيح فالمراد به ان تكون نيتكم فى صحبتنا تحقيق العبودية ومعرفة الحق سبحانه لا طلب كرامات ، ولا إدراك درجات ، إذ ذاك حاصل على كل حال . وأما الصدق فالمراد به ان تصدقوا بسر الخصوصية والولاية وتجزموا بما لاهلها من المعارف الالهية وتعتقدوا ذلك فى شيخكم والصدق بهذه الكيفية هو أساس الوصول ، فكل من صدق وصل وذاق ومن لا فلا ولو بقى مع الشيخ سنين لان الشيوخ لا ينظرون فيمن لا يعتقدهم سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وبهذا الصدق يغترف المريد من بحر المعارف ولو

كان ضعيفاً عن المجاهدة ، ولولا ضيق القرطاس لذكرنا لكم من فضل هذا المقام ما تحير فيه الألباب . وأما الآداب المرضية فالمراد بها حفظ الجوارح من المخالفة والبواطن من الاعتراض والتدبير والاختيار والمحافظة على السنن النبوية ومحبة الاخوان وتعظيم الشيوخ .

وأما الأحوال الزكية فالمراد بها خرق عوائد النفس وتخريب ظاهرها أكلا وشرباً وملبساً والسعى فيما يزيل جاهها ورياستها ، فكل من خالفها وخرق عوائدها بهذه الكيفية خرقت له العوائد وأكرمه الله بالعلوم والفوائد كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد مع كف الأذى عن الناس وحمل الأذى منهم .

وأما حفظ الحرمة فالمراد بها حرمة الشيخ حاضراً وغائباً حياً وميتاً فلا يجلس الفقير فى موضع يهان فيه شيخه ، وكذلك حفظ حرمة الاخوان بأن يحمل أذاهم ويكف أذاه عنهم ويكرمهم لله ويعظمهم لله ، وكذلك حرمة المسلمين فلا يذكرهم بسوء .

وأما حسن الخدمة فالمراد بها خدمة الشيخ والاخوان ومجاهدة النفس لله .

وأما رفع الهمة فالمراد بها أن يكون القصد معرفة الله والتمتع بمشاهدته مع الاعتماد عليه والفرار من كل شيء إليه .

وأما نفوذ العزيمة فالمراد بها أن لا يمل ولا يكسل ، ولا يلتفت إلى شياطين الجن والانس ، بل يدوم على سيره حتى يصل لربه .

وأما خلع العذار فالمراد به أن يخلع الأوصاف المذمومة، كالكبر والحرص على الدنيا ، ويتحلى بالأوصاف المحمودة ، كالحب والشوق والزهد ، ويخلع لباس العز والاستكبار ويلبس لباس الذل والانكسار .

وأما الذل والانكسار فالمراد به الخضوع لله سبحانه ولا يظهر ذلك إلا

بالخضوع لعباده .

وأما البذل والايثار فالمراد به الجود بالنفس والمال محبة فى ذى العظمة والجلال ، والجود شرط فى الطريق أقبح من كل قبيح صوفى شحيح .

وأما صحبة العارفين فالمراد بها سلب الارادة لهم ، وصحبتهم وخدمتهم لله ، وهو القطب فى الطريق ، وليست المعرفة بالعزلة إنما المعرفة بالصحبة .

وأما بذل المجهود فى الطاعات والأذكار فالمراد به ألا تمرّ عليه ساعة إلا وهى فى طاعة الله ، وهذا هو المقصود من الطريق ، والأهم عند أهل التحقيق ، فكل ساعة مرت على الفقير لم يذكر الله فيها كانت عليه حسرة وندامة . فأوقات الفقير دائرة بين ذكر ومذاكرة وفكرة ونظرة ومن خلا وقته من هذا فهو فى بطالة وفترة ليس له من الطريق إلا الاسم ، لا يذوق للولاية طعماً ولا يجد لايمانه حلاوة ولا لعلمه فهما فهذه شرائع الطريق وشروطها ، فكل من عمل بما ذكرنا نال المعرفة الكبرى ، إذ ما ذكرنا هو لب الشريعة المطهرة فتخلقوا بما ذكرنا لكم ولا بد ، واستعينوا على ذلك بالله فانكم عن قريب تصلون إلى مقام تأخذون فيه العلم عن الله وتزول عنكم اوصاف البشرية ، وتحيى لكم اوصاف الروحانية وبحياتها تصلون للحضرة القدسية ولا تحجبون عنها بشىء من الأشياء ويصير الغيب والشهادة عندكم سواء ، ومن لم يسلك كما ذكرنا غلبت بشريته على روحانيته فانطمست بصيرته وحجبت بالأكوان عن المكون فخسرت صفقته وضاعت حياته ، فاذكروا الله ولا بد واثبتوا فى باب الله واجتمعوا على ذكر الله وتواصلوا وتزاوروا ، واعلموا أن أمركم عند الله عظيم وقدركم جسيم ولا بد ان يجدد الله بكم هذا الدين فاثبتوا ولا بد ولا بد والسلام .

ومنها: إلى إخواننا فى الله وأحبائنا فيه كافة فقراء العرائش حفظكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى . أما بعد: فأحبكم احبكم الله ورسوله ان تقوموا بالوظائف الدينية

القلبية والقالبية ففيها السعادة الأخروية والراحة الأبدية . فمن الوظائف النطق بالشهادتين مع اعتقاد معناهما الذى هو ثبوت الوحدانية لله ذاتا وصفة وفعلا وثبوت رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع تصديقه فيما جاء به عن الله واتباع أوامره ونواهيه . فمنها وهو اهمها بعد الشهادتين أداء الصلوات الخمس فى اوقاتها المعينة لها مع إيقاعها فى الجماعة والاتيان بجميع شروطها من الطهارة الكبرى والصغرى واستقبال القبلة وستر العورة واتقان الوضوء باتقان الاستبراء الذى هو استفراغ ما فى المخارجين من الأذى مع الاستجمار بالأحجار إن أمكن والغسل بالماء بعده والاتيان بجميع الفرائض والسنن والمستحبات ، ولا بدمع هذا من المحافظة على النوافل ، كالوتر والفجر والضحى والرواتب القبلية والبعدية . ومنها الزكاة فأدوها إن وجبت عليكم ولا بد ولا بد فانها طهارة وبركة وسبب للغنى ، واحفظوا مع هذا جوارحكم التى هى الأذن والعين واللسان والبطن واليد والفرج والرجل من المنهيات ، فلا تسمعوا إلا الوعظ والذكر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا تنظروا إلى ما لا يحل لكم من النساء والصبيان والأمتعة ، واحفظوا ألسنتكم من الكذب والغيبة والنميمة والزور والبهتان وأيديكم من اذاية الناس فى أبدانهم وأموالهم وبطونكم من الحرام وفروجكم من مماسة ما لا يحل لكم وأرجلكم من المشى فى غير طاعة الله وقلوبكم من العجب والكبر والرياء والحسد والبغض والغل والحقد والغش والخديعة والمداهنة وحب الرياسة والتقدم وحب المدح وخوف الذم والاهتمام بالرزق والخوف من الخلق ، وتفكروا فى مصنوعات الله واستحضروا اطلاعه عليكم فى جميع الحالات ولا تستعظموا هذا فانه سهل ان استعنتم عليه بالله . ثم المؤكد به عليكم الاجتماع لذكر الله وقت فراغكم من الأشغال ، وخصوصا فيما بين المغرب والعشاء ، وفيما بين

صلاة الصبح وطلوع الشمس ففى ذكر الله فى هـذين الوقتين من الفضـل والثواب شىء عظيم ، وتزاوروا فى الله وتحابوا فيه ، وواسوا محتاجكم ، وصلوا أرحامكم ، وعودوا مرضاكم ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، واحتملوا أذى من آذاكم ، ولا تجالسوا من يقطعكم عن ذكر الله ولا تخالطوه فانه يميت قلوبكم وفى موتها فساد الدين وضعف اليقين ، وفى ذكر الله ذكره ورضاه ومجالسته وطمأنينة القلب وفى الاجتماع عليه رياض الجنة وغشيان الرحمة ونزول السكينة وحفوف الملائكة حسبما وردت به الأخبار وصحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآثار ، وإياكم والانصات لمن يعذلكم أو يلومكم فانه شيطان مارد ومطرود شارد ، ولاتسيئوا لأحد من عباد الله ولا تخافوه ولا ترجوه فان الأمور كلها بيد الله ، لا يملك أحد لأحد منها ضراً ولا نفعاً ، ولا خفضا ولا رفعا ، وصونوا قلوبكم من الطمع فى الخلق فانه الفقر الحاضر والذل الظاهر ، واعلموا أنكم ان فعلتم هذا ثبتت خصوصيتكم ونلتم مطلوبكم من ربكم ، أعانكم الله وقواكم ومن نزغات الشيطان حفظكم ووقاكم والسلام .

ومنها : الى كافة اخواننا فى الله السادات الفقراء العارفين الكبراء أهل الزاوية الأيوبية من الحضرة الفاسية دفع الله عنها كل فتنة وبلية امنكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى .

أما بعد تجديد العهد بمحبتكم والسؤال عن أحوالكم والتماس صالح أدعيتكم فانى أعلمكم أنه ما قامت الطريق ولا حصل طالبوها على التحقيق إلا بدوام الاجتماع مع أهلها والمذاكرة فى شروطها والعمل بمطلوباتها ولا بطل أمرها وحرم منها طالبوها إلا بالاعراض عن أهلها وعدم العمل بشروطها فاجتهدوا وفقكم الله تعالى فى القيام بشرائع الدين ، والتخلق بأخلاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، واجتنبوا ما يبعدكم عن الله من ارتكاب المناهى الشرعية ، وارتكبوا دائما ما يقربكم إلى الله من النوافل على اختلاف

أنواعها بعد أداء الفرائض العينية والزموا طهارة الثياب والبدن والمكان والوضوء دائما وصلاة ركعتين بعده فان لها سراً خاصا فى تنوير الباطن ونفى الخواطر الرديئة عنه ، وكذلك الزموا تحية المسجد والزاوية وصلاة الضحى وأقلها ركعتان ، وأكثرها ثمان ركعات وقيام آخر الليل والدعاء عقب الصلوات ، وفى وقت السحر وخصوصا إن وجدتم رقة ونشاطا فيه فان ذلك من علامة الاستجابة ، ولا تخصوا أنفسكم بالدعاء ، بل عمموا ليكون أنجح وأقرب للاجابة ، وواظبوا على حلقة الذكر صباحا ومساء إن أمكنكم ذلك وإلا ففى يوم الجمعة وليلتها وليلة الاثنين فان لها بركة وأثراً عظيما فى التخلى والتحلى ويكفيكم نزول السكينة عليها وغشيان رحمة الله لأهلها وغفران ذنوبهم ورفع درجاتهم كما ورد ذلك فى الأحاديث الصحيحة الشريفة ، ولا تتهولوا من إذاية الخلق ، ولا تكرهوا ما نزل بكم من الفاقات والأمراض فان ذلك سيعود على من ينزل به بالخير والفوز والبركة إن صبر ورضى ورجع إلى الله وترك تدبيره واختياره وفر من حوله وقوته إلى حول الله وقوته ، والزموا الصمت إلا عن ذكر الله أو امر بمعروف أو نهى عن منكر أو إصلاح بين الناس أو مذاكرة فى علم أو عمل ، واتركوا ما لا يأتى بخير من الأقوال والأفعال ، واجتنبوا الكذب والغيبة والنميمة والتجسس على عيوب الناس ، وارقبوا الله فى سركم وعلانيتكم واستحضروا دائما اطلاعه عليكم ، وتحققوا أن ناصيتكم وناصية الأكوان كلها بيد الله سبحانه ، يصرفها كيف يشاء فيما يشاء لا فعل لاحد معه سبحانه ، ولا تشتغلوا بأمر الوقت وما هو جار فيه فان ذلك يتلف قلوبكم ويصدها عن ذكر الله وعبوديته ، وبعد ذلك لا يكون إلا مراده سبحانه واقنعوا من الدنيا بما تيسر من غير كلفة ولا تعب ولا مزاحمة ، ولا تعلق بمخلوق تعلقا يؤدى إلى رؤيته ونسيان الله تعالى لأن ذلك نوع من أنواع الشرك ، ولا تتناولوا من المأكول والمشروب والملبوس إلا ما تقوم به البنية ويقع اليه الاحتياج من

غير إسراف ولا مبالغة فان من أخذ فوق ما يكفيه أعمى الله عين بصيرته . ومن تناول شهوته عدم صفوته وتزاوروا فى الله وتحابوا فيه فان ذلك من أعلى شعائر الدين الموجبة لمحبة رب العالمين . وعظموا المسلمين والعلماء وأهل البيت النبوى الشريف وأحبوا لهم ما تحبون لانفسكم واشتغلوا بعيوبكم عن عيوبهم واستغنوا بالله عن كل شىء سواه ففيه سبحانه الكفاية ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فى الدنيا وانظروا اليه فى الدين من غير حسد ولا حقد عليه ووقروا مقدمكم ولا بد وكبراءكم فى الطريق وفى السن ، واحترموهم لله وفى الله واسمعوا اليهم واتركوا ما تعرفون لما يعرفون فان البركة كما فى الحديث الشريف مع الأكابر ، وتحققوا أنكم ان عملتم بما ذكرناه أخذ الله بيدكم فى الحال ورحاتم إلى الله بظاهركم وباطنكم وأدركتم ما أدركه الرجال قبلكم وجربوا فى التجريب كشف الحقائق وإظهار ما خفى من الطرائق ، وواصلونا ما دمنا فى الحياة ، فبذلك يدوم سيركم ويكمل أمركم ، والله تعالى يتولانا ويتولاكم ويحفظكم ويرعاكم ، والسلام .

ومنها : أما بعد فقد بلغنا أنك وجميع الاخوان لازلتم مشتغلين باستنشاق طاباق فى انوفكم كما بلغنا أنكم تؤذون الأخ الصالح الفقيه وتعرضون عنه إذا لقيتموه فى الطريق فلا تسلمون عليه ولا تصافحونه فساءنا فعلكم لهذين الأمرين القبيحين استنشاق طاباق وإذاية الأخ المذكور واستقبحناه غاية الاستقباح . أما طاباق فلا يخفاك انه اتفق على تحريمه علماء الباطن قاطبة والصلحاء العاملون من علماء الظاهر لا خلاف بينهم فى ذلك حتى قال العارف بالله القطب شيخ شيوخنا سيدى محمد بن ناصر ان من يستعمله فى انفه او يتدخن به فى فيه لا حظ له فى طريق اهل الله ولا ينال منها شيئا وكذلك قاله شيخ شيوخنا مولاى العربى الدرقاوى فى جماعة كثيرة من الاولياء يطول ذكرهم وفى العماليات الفاسية .

وحرموا طابا للاستعمال وللتجارة على المنوال

ولا تغتروا باستنشاق من يستنشقها من فسقة العلماء المهتوفين المارقين فانه لا دليل معهم فيها ولا نور ببصريتهم يصلون به إلى الاطلاع على قبائحها فالفرار الفرار منها والبدار البدار عاجلا إلى تركها إن أردتم سلامة دينكم وصلاح ظاهركم وباطنكم .

وأما إذايتكم للأخ المذكور فلا يخفاكم ما ورد فى توقير مطلق المسلمين واحترامهم فضلا عمن كان منهم من أهل الفضل والصلاح والدين وذوى الشيبة والوقار المتين ، ويكفيكم قوله عليه الصلاة والسلام « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » وقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق الامام المقسط والعالم العامل وذو الشيبة فى الاسلام » إلى غير هذا من الأحاديث الكثيرة فى هذا المقام . وفى القرآن العظيم « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » . ومن أعظم حرمات الله المسلم الصالح ذو الشيبة فى الاسلام ، واذا كان هذا فى مطلق حق المسلم على المسلم فما ذا يكون حق الأخ على أخيه فى الله الأخوة الصالحة التى جعلها الله بابا من أبوابه وطريقا موصلا إلى رضوانه مثل أخوتكم مع الأخ المذكور فانها بمقتضى شريعة الطريق تستوجب عليكم أن تعظموه وتحترموه وتوقروه وتتحملوا ما عسى أن يصدر منه ، وتقابلوا إساءته بالاحسان محبة فى الله ورسوله وتخلقا بأخلاقه صلى الله عليه وسلم وأخلاق كبار أمته فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . وكان لا ينتصر لنفسه من مظلمة ظلمها كما فى الصحيح وكان يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه ويقول بهذا أمرنى ربى وقد تبعه على هذه الاخلاق الكريمة سلف هذه الأمة وكبراؤها من العلماء العاملين والأولياء الكاملين عملا بقوله تعالى « قل إن كنتم تحبون الله

فاتبعونى يحببكم الله » فنالوا بذلك ما نالوه من سعادة الدارين ، والفوز بمعرفة الله ورضاه فى الكونين ، وليست الطريق إلى الله بكثرة الصلاة والصيام ، بل بالقيام بالواجبات فقط مع التواضع وحسن الخلق مع الأنام والاعراض عن النفس وما تطلبه من الرياسة وعلو المقام فبهذا بلغوا ما بلغوه من الولاية الكبرى والصلاح وحسن الختام .

وقد قال شيخ شيوخنا القطب مولاى العربى الدرقاوى رضى الله عنه من تعذر عليه الفتح فليعمد إلى فاس الاحسان وليحفر به فى قلوب الاخوان يخرج له ينبوع من العلم يغنيه عن مذاكرة الذاكر ومطالعة الدفاتر فاعرف هذا وعرف به الاخوان . وبادروا بعد ذلك إلى الأخ المذكور واستعطفوه عليكم واستجلبوا رضاه ووقروه وقدموه فى الصلاة وغيرها فانه ممن يستحق التعظيم والتقديم ولا تلتفتوا إلى أنفسكم وأهوائكم وكونوا معه يداً واحدة فى الله ولا تسمعوا فيه قول قائل ولا إنكار منكر فان الوقت كما لا يخفاكم لا يسلم أحد من أهله هذا واجتهدوا فى طاعة ربكم وعمارة أوقاتكم بذكر الله والتخلق بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقنعوا من الدنيا بما تيسر من غير كلفة ولا تعب ووقروا الكبير وارحموا الصغير واعتمدوا على الله فى جميع أموركم وقدموا أمره سبحانه وتعالى على شهوات أنفسكم ليقرب عليكم الطريق وتحصلوا فى أمد قريب على التحقيق وتلقوا الله كما تحبون وتنالوا فى الآخرة ماتطلبون وما ترتضون وتمسكنوا فان المسكنة فى هذه الدار سبب للنجاة من البوار ومن العذاب ودخول النار وارضوا بما يبرز من القضاء يرضى الله عنكم واحفظوا أمر الله فى الرخاء يحفظكم فى الشدة واذكروه فى اليسر يذكركم فى العسر وخافوه يؤمنكم واتقوه سبحانه يكرمكم والله يعينكم ويحفظكم اه .

ومنها رسائل أخرى مذكورة فى الأصل .